وجه القمر

مجموعة قصصية

□□□ □□□□□1.indd 1 1/17/18 8:07 AM

دار غراب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: وجه القمر
اسم المؤلف	: أسامة أحمد العمري
الغلاف	: جروث أب
المراجعة والصياغة	: الشاعرة إيمان إمبابي
خطوط	: الخطاط محمود شومان ، الخطاط هاني الطويل
اللوحات	: مجموعة من الفنانين
الاشراف الفني	: الفنانة عبير العرينى
التدقيق اللغوي	: الأستاذ خالد رجب عواد
الاخراج الفنى	: شركة نمو متصل
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧/٢٥٢٢٧
الترقيم الدولي	: ٩٧٨٨-٩٧٧-٧٨٦-١٢٨-١

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠- مدينة نصر - القاهرة ت : ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

□□□ □□□□□1.indd 2 1/17/18 8:07 AM

وجه القمر

مجموعة قصصية

□□□ □□□□□1.indd 3 1/17/18 8:07 AM

الإهداء

إلى كل الذين فقدوا سبل الحقيقة .. وزحزحوا عن مسارها ..

لتظل اسئلتهم حبيسة جب من الخوف بعدم الجرأة لنقاشها

إلى كل من أُلجموا عن معرفة ابعاد قضايا مجتمعهم

.. لتظل فقط كمسلمات وموروثات نشأنا عليها ..

إلى من لازالت تعترك الأسئلة في عقولهم

دون ومضة ترشدهم

أهدى لكم هذا الكتاب، ،،

أسامة أحمد العمري

□□□ □□□□□1.indd 5 1/17/18 8:07 AM

كتب أخرى للمؤلف

- خوفناك كوهست -مجموعة قصصية-
- البشرى "بالرؤية والعلم تبنى الحضارات"
- كيف تصنع الدهشة (تحت الطبع)
- نسمات من زمن الحب (تحت الطبع)
- أسرار الانفوجرافيك (تحت الطبع)

□□□ □□□□□1.indd 6 1/17/18 8:07 AM

إلى من تُشرق الشمسُ بابتسامتها

وينّسدلُ الليل ستارة سواداء كثيفة حين

تغيبُ تلك الابتسامةَ

إلى منّ تُبدلُ الشقاء رخاءً بضحكتِها

إلى وجه القمرِ

ابنتى رَنِيم

أسامة أحمد العمري

□□□ □□□□□1.indd 7 1/17/18 8:07 AM

الفهرس

المقدمة ١١

هوية ١٥

إشارةٌ حمّراءُ ٤١

النداء الاخير ٥٧

امنية حرون ٨١

وجه القمر ٩٥

فيلم برونو ١١٧

كرافته جينفشي ١٣٣

الغيمُ الأسود ١٥١

غنجٌ تحت الردى ١٦٩

البرزخ ١٩٣

□□□ □□□□□1.indd 9 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 10 1/17/18 8:07 AM

مُقدّمة

لعلي دخلت عالم الكتابة متأخراً، ورغم إن كل ما يدور حولي قد يكون عاملا مثبطاً لكي لا اكتب . إلا إنني كنتُ اعاقر ذلك الشغف الذي يحدوني كل مرةٍ في خلوتي، بإن يكون لي أثرٌ في عالم الكلمة، ذاك العالم المسافر بغيرِ زمنٍ ولا مسافات .

ومرت الايامُ وأضحى هناك اغلفة عليها اسمي،مما شجعنى إن أكتب مدفوعاً بشغفِ الأثرِ، أن أترك رصيداً يُسْتدلُ به على فكري وقيمي وتطلعي لبصمةٍ إيجابية في عقولِ وفكر البشر، بعد رحيلي، لذ كنت أناجزُ الوقتَ، واخادعه فيخدعني تاراتٍ حتى أمكُن منه، فأقْتنصُ منه سويعات .. تتسمُ مراتٍ بالاضطرابِ وتارة بالانتظامِ.

وإني على قناعةٍ بأن الكاتبَ مهما كان مُحنّكاً وكتوماً وحريصاً، فإن كتاباته تُفصح عنه، وإن استشكلَ ذلك على القراء، فإن النقاد لن يستنكفوا جهداً في كشفِ وبيان شخصية الكاتبِ وتوجّهاته، وكلما كتب كلما تبين ملامح شخصيته وحدودها، وأدرك الجمهورُ لمن يقرأ، وعلى أى أساس بنى أحكامه وأفكاره ...

□□□ □□□□□1.indd 11 1/17/18 8:07 AM

وفي هذه المقدمة أكشفُ بشفافيةِ سبلي الفكرية .. دون حاجة إلى استقصاءٍ أو بحثٍ .

فكتاباتي تعكسُ جزء من أفكار طالما شغلني التفكر فيها، ولعل في هذه المجموعة من القصص ما هو الأقرب إلى قلبي، لكن الرابط الذى يجمعُ هذه القصص هو احساسي بالمسئوليةِ تجاه الكلمة، ودورها الهام في تشكيل الجيل الجديد، وكيف يمكن أن تكون الكلمة يداً للبناءِ أو معولاً للهدم.

لذلك عملت على هذه المجموعة أكثر من سنتين أنْقح وأبدل وأعدّل، أحذف وأكتب من جديد، وما بين ما أغرم به ككاتبٍ وما يهمني أن يصلُ للقارئ، وأنا في ذلك مجتهد، أصيب و أخطأ، وعندما أنتهي من كل قصةٍ، اسأل نفسي هذا السؤال .. هل تليق بأن يقرأها أولادي!.

حتى إذا كانت الأجابة نعم .. استكملت الكتابة بحذرِ المتوجس.

فيما بين يديك عزيزي القارئ هو اجتهاد كاتب؛ إن اصاب فمن الله توفيقه، وإن أخطأ فمن نفسه وما اعتراها من الهوى ونزعات الشيطان.

سبتمبر ٢٠١٧

أسامة أحمد العربي

□□□ □□□□□1.indd 13 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 14 1/17/18 8:07 AM

هوية

شتان بين الحياة في الأسفلِ والسطحِ, يتحرك الجميعُ في الأعماق بحثا عن الرزقِ كلٌّ على شاكلته جماعاتٍ وفرادي، يغدون كما تغدو الطيرُ تروحً خماصا وتعود بطانا، لا تصنِّف كائناتُ البحر بعضُها البعضَ على الهوية أو الجنسية ولا تنْصب الحدودَ والأسوارَ حول الشعاب؛ فأرض اللّه تسع الجميع، توحدهم رغبةُ الحياة المشتركة فالفردُ جزءٌ هامٌّ في حياة الآخر.

□□□ □□□□□1.indd 15 1/17/18 8:07 AM

يفرد البحُر أمواجهِ على مرمى البصرِ، تستكين أمواجهِ في وقارٍ وحلمٍ، كالعروس في خِدرِها تمْنطقتْ بنطاق السيادةِ، مليكة منسدحة في عزِّها، إستيقظت الشمسُ تمطْمطْ أشعتها على البحرِ مزجيةً الماءَ بدفء حرارتها، فترى تناغم الشمسِ والبحرِ، لوحةٌ سيرياليةٌ لتمازج يعجُ بأناقةٍ أسطوريةٍ؛

في تلك اللحظاتِ، وبينماالهدوءُ يسْرى مسرَى النسيمِ برصانة لا يخلخِلُ انسيابيتَها سوى أصوات زعانفِ الغواصين تمْخرُ الماءَ بانتظام ما لبثت أن اختفت، تعاقبت تلك الأصواتُ بانتظامٍ مُطَّرِدٍ ثم اختفتْ كلُّها في وقت متقارب.

لم يبقَ إلا نسماتُ الهواءِ العليلةُ تغازل مقاعدَ المصطافين أمامَ مرفأ الغطسِ، بينما المراكبُ واليخوتُ كأسُودٍ تزأر طالبةً الانعتاقَ من رِقِّ القيدِ إلى حرية شقِّ الأمواجِ بشغفِ المغامرة والاكتشافْ.

شتان بين الحياة في الأسفلِ والسطحِ، يتحرك الجميعُ في الأعماق بحثا عن الرزقِ كلٌ على شاكلته جماعاتٍ وفرادي،يغدون كما تغدو الطيرُ تروحُ خماصا وتعود بطانا، لا تصنِّف كائناتُ البحر بعضُها البعضَ على الهوية أو الجنسية ولا تنْصب الحدودَ والأسوارَ حول الشعاب؛ فأرض الله تسع الجميع، توحدهم رغبةُ الحياة المشتركة فالفردُ جزءٌ هامٌّ في حياة الآخر.

لا تملكُ عندما ترى أسرابَ السمك تتهادي أمامك إلا أن تتدثرَ بـ(سبحان الله والحمدلله والله أكبر)، إحساسٌ يسْبِرُ أغوارَك في

□□□ □□□□□1.indd 16 1/17/18 8:07 AM

اتساع الكونِ ليرسخَ في نفسك ذلك اليقين ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[1]

تَسيرُ المجموعةُ على هيئة مسارٍ مستقيمٍ كأنها سرب من الاسماك الكبيرة تسربلت ببزاتٍ سوداءَ وتمنطقت بحزامِ الأوزان واسطوانات الأوكسجين ونظارات جعلت رؤيتها أحادية فترى ما هو أمامك فحسب، إحساسٌ غريبٌ أنْ نجْتمع وقد اختلفت اصُولنَا وجنسياتنا، لكننا نتّحدَ في الحركةِ والعمقِ والسرعةِ، اختفت اللغة وذابتْ اللهجاتُ وانْصَهرت الهويةُ، ليتجلى مفهوم الإنسان، اسْتبُدلَت الأبجديةَ برموزٍ وحّدت الجميعَ، المصري والسعودي والبريطاني والمكسيكي في بوتقةٍ واحدةٍ، فكأنما تُعِيدَ تشكيل بصيرتَك من جديد، بأن الإنسانيةَ أكبر مظلةٍ نسْتَظل بها؛

تُدرِك وقتها قيمةَ الوحدةِ والعزوةِ، فحياة زميلك مسئوليتَك كذلك حياتُكَ، هُنَا نخَاف بعضنا على بعض ونعي أن نجاةَ واحدٍ هي نجاة الكُلِ، إنقطع الصوتُ ولم يبق لنا مؤونة نعوّلُ عليها إلا بضعُ إشاراتٍ نُوكِلُ عليها الفهم، نتحرك ببطءٍ وهدوءٍ تتغشانا سكينةُ البحرِ؛

خرجنا من الغطسةِ، ينهشُ الجوعُ أحشائنا، تقودنا الرغبةُ في التّحررِ من أثقال أدوات الغوصِ، لارتداء بزةُ العملِ، فاليوم السبت وغداً يوجد لكل منا أشغاله، لفيفٌ مختلفُ المشاربِ والهويةِ، فمعنا حاصلٌ على الثانويةِ العامةِ، والمستشارُ في شركةٍ خاصةٍ، والبريطاني مدرس الفيزياء في إحدى المدارسِ الخاصةِ،

١-سورة (الأنعام:٣٨).

□□□ □□□□□1.indd 17 1/17/18 8:07 AM

والمكسيكي .. رجل الأعمالِ، توليفةٌ مِنْ الجنسياتِ والثقافاتِ لا تجْتمعُ إلا في رحابِ كرحابِ البحرِ، وكأن البحرَ أسْقطَ كل حواجزِ الهويةِ والثقافةِ والتاريخِ، لتبقى الإنسانيةُ هي الأشمل لاحتواءِ الجميعِ لا مَنَاص.

تتَصَاعدُ الحوارات بيننا غالبا في طريقِنا إلى المطارِ بين شدٍ وجذبٍ، فَكُلاً يرى العالمَ مِنْ منظورِه، ولا تثريب في محاولةِ استجلاءِ تلك الرؤى وتصْديرَها للآخرَ تارة بدعوى الحريةِ وأُخْرى بدعوى المساواة في الفكرِ والتعبيرِ، كانوا يتغازمون عليَّ علناً عِندما يتَلبْسَني القلق في نهايةِ الغطسةِ، استعداداً للرحيلِ وأنا أسْتلُ نفسي تدريجياً من بزةِ الغطس إلى بدلة رجلِ الأعمالِ، فكان الكابتن عادةً ما يطلق تعليقَه المستتُر بقولِه :

-أنتَ الوحيد من بيننا الذى تَمْتَلك وقْتَك وظروفك فأنت من تديُر عملك بنفسِكَ، ورغم ذلك أنت أعَجُلنا على الرجوعِ، وكأنك موظفٍ يساق الى العملِ سوقاً

وتخاتلُ جملي المفعمةَ بالثقةِ جمله المستترة تلك

-الامرُ يتعدى ذلك إلى الالتزامِ، فكيف تُحقّق النهوضَ بعملك دون التزامٍ بمواعيده

فيجابهني بقولِه:

-ولكن إنَ لنفسِك عليك حقٌ ..

□□□ □□□□□1.indd 18 1/17/18 8:07 AM

وتنطلق الهمْهماتُ والصيحات التى تَدّعم ذلك، في محاولةٍ للنيلِ مني، فأخترقُ همْهمَاتهَم بصوتٍ مرتفعٍ لتأكيد حق الاعتراضِ قبلَ أنْ يتحدوا ضدي .. هذا الحق مايجمعنا كل فترةٍ ليستْ بالبعيدةِ لممارسةِ هذا الجنون؛ وبينما نتداول الحديثَ .. هدّأ الكابتن سرعة السيارةِ، واسترعى انْتِبَاهنا سيارات الشرطةِ على الجانبين مع السرينةِ الملونةِ، فوقع في ذهني إنه كمين للشرطةِ.

وتوقفت السيارةُ، فباشرنا الضَابطْ متوجهاً إلى السائقِ طالباً من الجميع إظهار هويتِه، وبينما أفُتشُ في ملابسي ادركت أنَ كل أغراضي مع الكابتن شريف، فأومئتُ له برأسي :

-كابتن فضلاً إبرزْ له بطاقتي ..

فابْتسَمَ الكابتن قائلاً: حسناً لكنْ عندما أجدُ بطاقتي أولاً ..

بادلت ابتسامته بأخرى، ما لِبثتْ أنْ ذَبُلتْ مع نظرة الشرطي الحادةِ وصوته الصارمِ بطلب الهوية أو التَرجّل من السيارةِ، بدا الأمرُ للوهلةِ الأولى عادي، فدقائقُ معدودةٌ، ويتم الكشف عن اسمي على جهاز الكمبيوتر؛

فبياناتي على بُعد ضغْطةِ زرّ في لوحةِ المفاتيحِ، لذلك خَطّوتُ خارِج السيارةِ برباطةِ جأش، فلنْ يعجز الشرطي في معرفةِ شَخْصي بدقاتٍ معدودةٍ على جهازِ الحاسبِ المركزي؛

□□□ □□□□□1.indd 19 1/17/18 8:07 AM

كُنْت أرتدي شورت طويل مع تي شيرت خفيف، ولا أَحْملُ مِن متاعِ الدنيا إلا هاتفي المحمول، حتى الساعة هجرّتها في غرفتي بالفندقِ، وبينما عيني تتجافى عن السكينةِ بمطالعة الهاتفِ لتعرف ما تبقى على وقت السفرِ، هالني وجهُ الضابطِ متجهماً كأنما نَزَل عليه غضبٌ من السماءِ مدققا النَظَر اليَّ، فما إن حادثْتَه حتى تَفحْصَني مِن أعلى إلى أسْفَل، ثُمَ أمرني بالتزام الصَمت والانْتِظار بجانبِ سيارته ريثما ينتهي من استِطلاع باقي السياراتِ؛

تَعجْبتُ وسألته مستنكراً!

-لماذا لا تكْشفُ على إسمي في الكمبيوتر لتعرف شخصيتى !؟

لمّ يعرني أي انتباه وأَخذ طريقه متنقلاً بين السياراتِ وقد تأبطّ شراً مستوقفاً هذه وساخطاً متبرماً مشيراً إلى أُخرى؛

تَتَبْعته متلطفاً ..علّه يُنْزِل النْاس منازلها فما كان منه إلا أن انْفَعَل في وجهي صائحاً:

-لابد أنْ تَعرِفَ أنْكَ مقْبوضٌ عليك ليس في نُزهةٍ بريةٍ ..

ولمْ يتْرك لي مساحة للتعليق أو الاعْتراَضْ، إلا أنْ أمسكَ يديا، وقَيدَها بوضعِ الكلبشاتِ وساقني إلى سيارةِ دفعٍ رباعيةٍ، فتح شطنتها الخلفيةِ بيِسْرَاه ودفعني بيمْناه للصعودِ داخلها ؛

لوهلةٍ شَعرتُ أَني في فيلم مأساوي،حاولتُ المقاومة ولكني شعرت أنَ الجِدَال معه سَيفْقِدني مكانتي، فرضَخْتُ للواقعِ، ليقيني بأنْها لحظاتِ

□□□ □□□□□1.indd 20 1/17/18 8:07 AM

ويتَضْحُ الأمرُ جلياً، وارتَقيتُ شنطة السيارةِ لأجدَ ..كنبةً طويلةً بجلدٍ أسودٍ، تكوّمتُ عليها وأنا في حالةِ ذهولٍ، تأملت الشنطة وجدت خلفي حاجزاً من زجاجٍ مقاومٍ للرصاصِ، يغطيه من الأسفلِ حديدُ أسودُ خشن يغطي الجدارِ الفاصلِ إلا من فتحةٍ صغيرةٍ مغطاة بزجاجٍ سميكٍ بحفرٍ دائريةٍ صغيرةٍ، تسمح بسريان الهواء من قمرةِ القيادةِ الى سجنِ الشنطةِ؛

كانت الشنطةُ فارغةً من كُلِ شئٍ إلا من كنبةٍ بجلدِ أسودٍ طويلٍ ومقعدٍ، بُطّنت الشنطةُ من الداخلِ بفولاذٍ أسودٍ مُصْمتٍ خشنٍ تعكسُ خشونةِ ملْمسِه سقوط الأملُ في هوةٍ بلا قرارٍ؛

.. ويظهرُ بعض ضوءٍ على استحياءٍ عند التقاءِ جانب السيارةِ بالسقفِ في شراعةٍ صغيرةٍ بين السقفِ والفولاذ، لتبادل الهواءَ بين الداخلِ والخارجِ، تَحسّستُ سطحِ الفولاذِ الخشنِ بأناملي، ملّمَسه كنصولٍ من السكاكين، أتّقافَز بينهم بنظري إلى تلك الصواميلُ العريضةُ قاسيةُ حادة الحوافِ كحدةِ وحدةِ السجنِ ويتّمه، أتَلَمّسُ خشونةَ الفولاذِ لانكمشُ في ملابسي الناعمةِ متلوذاً بها من قشْعريرةِ الفولاذِ وقسْوتِه.

غالبت هذه القشعريرة بالنظرِ إلى هاتفي الجوال، وَجدّتُ إنَّ البطاريةَ ترفع إشاراتِ الاستغاثةِ، فَقدّ بلغ الإنهاكُ نهايتِه، حتى نُزِغَ في نفسي إنها سَتخْلدُ للراحةِ دون إذنٍ مسبقٍ، فغامرتُ بهذه اللحظاتِ الثمينةِ وتَجَرّأتُ واتّصَلت بشريف

□□□ □□□□□1.indd 21 1/17/18 8:07 AM

وكلّمَا دَقَّ الهاتِف .. .. تَراقص قلبي وجلاً ،

منِ أَنْ يَضْلُ الاتّصَال فَتَضِيعُ دَفقَات البطاريةِ في نطاق المفقودِ، فلا أستفيد من تِلّكَ الرّنّات...

بدأَ الهاتف بالرنين .. الرّنةُ الأولى .. تيييييييييييييت

لمْ يَرُد .....

تَجاَسر الهاتف على الرّنةِ الثانية .. تيييييييييييييت

لمْ يَرُد .....

وَقَع قلبي في هاجسٍ أَنْ يَمُوتُ الهاتفُ دُونَ وسيلة للتواصلِ مع العالمِ الخارجي، وأنا أَصرُخُ داخلي .. ردّ . ردّ .. نعم ردّ .... يلا

مع بدايةِ الرّنةِ الثالثة ردَّ الهاتف :

-أيوه يا كابتن ..

-أيوه .. يا رشيد ..

-رشيد مين يا كابتن لمْ يَعُدّ هنُاكَ رشيد هُناكَ .. سَجِين .. أسِير، فَقِيد ..

-هههههه هَوّن عَليكَ، كُلها لحظاتٍ وتَعودَ الأمورُإلى مَسارِها ،

-هلّ تَعرِفَ أينَ أنا الآن ؟

□□□ □□□□□1.indd 22 1/17/18 8:07 AM

أنا في تِلكَ السيارةِ الجيبِّ البيضاءِ على يمينِ الطريقِ، أنا مسْجُونٌ في تخشيبةِ دفعِ رباعيٍ يا صديقي،

-لَيسَ إلى هذا الحدِ! لابُدَ أنّكَ تَمْزَحُ!

-بالفعل ..

-ما الذى حَدَثَ مَعكَ؟

-لمْ يُعِرَني أيَّ اهتِمامٍ عندما طَلبْتُ منْه تَفَحْصُ هويتي على الكمبيوتر أو النّظامِ، تَجاهلَ ذَلِك وعندما حاولتُ لفْتِ انْتباهه قادني إلى التّخْشِيبةِ كما يقودُ بقرةً جافلةً عَن القطيع فَنهرها ودفعها قهراً للامِتثالِ للمسارِ الذى يحدده، وقيْدَني بالكلبشاتِ وصِرْتُ يا صديقي بين جدرانٍ أربعة من الفولاذ .. .. ولكنْ لحظه، كيفَ تَرَكك ولم يأخُذَك معيَّ!؟

-كلُّ ما في الأمرِ إنّه طلب هويتي فاعْتذرتُ له عن ذلك، فسألنيَ صورتها فوجدّتها على الهاتفِ، فأعفاني من السؤالِ وأطلق سراحي ...

-ولماذا هذا التمييز يا صديقي؛

.. أليس مِنَ الأجْدَرِ أن يراعي ذَلِك معي أيضاً، لماذا لمْ يسْألني نفسْ السؤال! ألا تَرى أنَ الأمر فيه شئ منَ المزاجيةِ والتمييزِ ؟

-ليسَ هذا محْور حديثنا الآن ..

□□□ □□□□□1.indd 23 1/17/18 8:07 AM

-سأتوجّه للفندقِ لإحضارِ هَويّتك على أنْ ألاقيك في أقْرَبِ مكانٍ سَتكون فيه لأُخْرِجك منِ هذه الورّطةِ،

-لكن اسأل الضابطَ إلى أيْنَ سَتتحرّك السيارةُ حتى نلّقاك ..

-يا صديقى .. سَيلّفَظُ تليفونى أنّفاسه الأخيرة بعد قليلٍ، لذلك سأحاول أن أحافظ على ما تبقى له من طاقةٍ بأنْ أجْعله في انْتِظار اِتّصالك،

-يجمعنا الخير ..

-لا تتأخّر ..

-وهو كذلك ..

مرّتْ الدقائقُ مُظْلِمة حتى فَتَح الضابطُ بابَ الشنطةِ مِن جديد ولكن هذه المرةُ ليدخلَ شخصاً إلى التّخشيبةِ،

.. تأهبتُ بالسؤال عن وجهةِ السيارةِ للضابطِ إلا أنّه لمْ يعْطني فرصةً

وسرعان ما أغْلق باب الشنطةِ في وجهي .. وقَفَلَ عائداً، كان الشخصُ باكستاني الهيئةِ .. قمّحي الشكلِ، ذو شعرٍ كثيفٍ أسودٍ، ناعم، يرتدي ملابسَ عاديةً، بنطلون قماش بني متّسخ، عاقَرَتْ الشّمسُ لونَه حتى ذهب..مع قميصٍ مقلّم بخطوطٍ رفيعةٍ متعددةِ الألوانِ بينَ الأخضرِ والأزرقِ والبنيّ .. في تجانسٍ قضى عليه اهتراءُ خامةِ القميص وتهالكُ بعضِ أجزائه عندَ الكوع.

□□□ □□□□□1.indd 24 1/17/18 8:07 AM

لحظاتٌ... في عُرْفِ الزمنِ دقائقُ وفي عرف الحبيسِ سنينٌ .. جاء الضابطُ مرةً أخرى وفتحَ الشنطةَ دون أن ينْبِسَ ببِنْتِ شَفَة و دَفَعَ أحدَهم للدخولِ، كان شاباً عربيَّ الملامحِ هذه المرة، كالحَ الوجهِ.. ذا شعرٍ خشنٍ، يرتدي قميصا يشى لونُه بأنه كان يوما من الأيام أزرقَ و"بنطلون جينز" عتيقا كإنما ينافس الزمنَ في قِدمِهِ، وكأنما أصبحت الشنطة سجنا صغيرا يساق إليه المظلومون من كلِّ حدبٍ وصوبٍ فما هي إلا لحظاتٍ وتم فتحُ الشنطةَ مرةً أخرى ليُدّخلَ شخصاً آخراً، عربيَّ الهيئةِ أبيض، لكْنَتهُ توحي بأنه مِنْ أهلِ الشام، ودوداً وإن اهْتَاجتْ ملامحِه بفزعِ الموقفِ، وزَاغتْ عيناهُ بين النازحين متشوفاً لِما يجري، ثُمَ ما لبِثت أن استكانت وكأنّما تزمّلت بالتسليمِ واليقينِ، وها أنا أتقلب على جمرِ الصبرِ ألوذُ بالأمل في أن يمُنَّ الضابطُ عليَّ بمعلومةٍ أسوقها إلى أصدقائي لينتهى هذا الكابوس،

والدقائق حُبلى بالانتظارِ، والوقت لا يمضى.

تَعلّقتْ عيناي ببابِ الشنطةِ من جديدٍ ..

بابٌ يفْصلُ بينَ السجنِ والحريةِ وبينَ حياةٍ وحياة .. وكالعادة إنضم سجينٌ آخرٌ إلى سجناءِ الشنطةِ، فعاجلْتُ الضابطِ بالسؤالِ

-أينَ نَحنُ الآن ؟

فردّ باقتضابٍ دونَ أنْ ينْظرُ إليَّ، ويداهُ تهمُ بإغلاقِ البابِ ..

□□□ □□□□□1.indd 25 1/17/18 8:07 AM

-شارع الكورنيش

-لقدّ تَحدّثتُ إلى زملائيَّ، وهم في طريقهم إلى هُناَ،

-أَبلغهم أن يتّبَعوك إلى ساحةِ الوادي الكبيرِ فلن أتوقفُ هُنا كثيراً

قال ذلك ولمّ يعطني أى وجهٍ لأستفسرَ منه فأغلق باب الشنطةِ قاضياً بانتهاءِ الحوارِ.

لحظات وسمعنا بابِ السيارةِ الأماميّ يُفْتَحُ، إسْتدرتُ برأسي في محاولةٍ لاستشفافِ ما يجري في القمرةِ الأماميةِ من بين تلك القضبانِ الفولاذيةِ الخشنةِ التي تُغطي الزجاجَ، شاهدتُ بعضِ أوراقٍ ملقاةٍ على الكرسي بجوارِ السائقِ، دقائق قليلة أعْقَبها دخولُ الضابطِ إلى السيارةِ لتنطلق السيارةُ بحدةٍ ورهقٍ على الطريق .

للوهلةِ الأولى إنتابني شعورٌ غريبٌ .. بأنّنا بضاعةٌ مزجاةٌ، مجموعةٌ مِنَ الآدميين يحشرون في شنطةِ سيارة دونَ أي احترامٍ لآدميتهم، وجوهنا تتصادمُ بحقيقةِ الموقفِ البائسِ، وترّتَجُ أجسادُنا مع حَرَكةِ السيارةِ فوقَ المطباتِ كأنّنا أقفاصٍ من الخضراوتِ تَفزعُ في كُلِ مطبٍ تَلّقمهُ السيارةُ.

أتتبعُ حركة الطريق لا شئ يشي بالحريةِ إلا بصيص شعاعٍ يتلصصُ بين قضبان الشراعة الجانبية

ما أقسى أن تُسلب منك حُرّيتك في لحظةٍ واحدةٍ دون مقدمات، فَقط لأنك نسيت هويّتك

□□□ □□□□□1.indd 26 1/17/18 8:07 AM

وكأنما الهويةِ هي بطاقة الاعترافِ بالحياة

وبدونها أنت لا شئ لا دلالة لوجودك ..

مُجرّد اسم ممهور على ورقةٍ تحّملُ صورةً ضوئيةً.

المطباتُ تُقلبنا كما يقلّب الدجاج في الزيتِ الحارِ، لا نكادُ نسْتقرُّ على الكنبة حتى نتقافزَ كحباتِ الفيشارِ المجنونةِ، مضت عدّة دقائق ثُمّ توقّفت السيارةُ، مددت عنقي أستطلُعُ الأمر من مساحة التهوية فوجدته تَرَجّلُ مُمسكاً أقماعَ المرورِ البرتقالية بكلتا يديه ليضعها في منتصفِ الطريقِ، و أتّخذ مكانه بين الاقماعِ متأهباً مستوقفاً السيارات، طالباً منهم الهويةَ.

ابتلعتُ ريقي وقد بلغ ظنى إن اليومَ سيكون طويلاً ولمّ تمض لحظاتٍ حتى فتح الضابطُ الشنطةَ مرة أخرى؛

ليزجُّ بأربعةِ اشخاصٍ مرة واحدة، ملامحهم أسيوية، تَحوّلت الشنطةَ لعلبة سردين

افترش الجدد أرجُلهم على أرجل بعض، وتَخبّطت الأجساد بفعل الزحام، وتعالت الأصواتُ والضوضاء بين مَنْ يتحدثون مع بعضهم البعض، ومَنْ يتحدث بالجوالِ لا أفقهُ من حديثه كلمة واحدة، وآخر يتحدثُ مع أحدِهم بالعربيةِ بحروفٍ مكسرةٍ ويستشيرُ من أمامه في كلِ كلمةٍ لتصحيح الترجمة.

مزيجاً يدعو للإحساس بالقهرِ

□□□ □□□□□1.indd 27 1/17/18 8:07 AM

وقد نَعمتُ بجلوسي على الكنبةِ بينما عاث الاضْطراب الشنطة بمن جلس وانّضغط وازّدحم.

سألتُ زميلي عن الساعةِ، ولازال الأمل يراودني إننا رغم كلّ ما حَدثَ نستطيع اللحاق بركبِ السفرِ، أعْتنقُ اليقينَ في قلبي بأن يأتي زملائي بهويتي وينْتهي الأمر عِندَ هذا الحد

حاولتُ أن أطمِئنُ بالحديثِ مع زميلي فعرّفته باسمي وسألته عن اسمه فقال :

-جلال

فرحْبتُ به مستأنساً..

-مصري

-لا . . يمني

-أنْعم وأكْرم ..

-مِن أَين من اليمن السعيد ؟

-نظر إليّ من أعلى إلى أسفلِ .. تعّز

-أحسن ناس ..

-وماذا كنتُ تَفعل عِندما الّتقطك الضابط ؟

-في طريقي إلى العمل ..

□□□ □□□□□1.indd 28 1/17/18 8:07 AM

-وماذا تَعملُ ؟

-مليِّس[1] ..

إجاباته مقتضبة وعيناه زائغتان، مشاعره مضْطربة، حاولتُ أن أسرّي عنه ..

-إن شاء اللّه خير، لا تقْلقْ فشدة وتزول ..

إلتفت إليّ بنظرةٍ جامدةٍ يملؤها الحزنُ

-لا مناصْ يا صديقي سوف يتمّ ترحيلي فأنا بدون أوراق ثبوتيه،

أجبته بدهشةٍ

-مُنذ متى وأنت هنا في البلادِ ؟

فأشار بأصابِعه ثلاثْ سنواتٍ، دون أن ينّبت ببنتِ شفةٍ،

-ثلاث سنوات ولا يوجد معك أوراقٍ نظاميةٍ ؟! لابد أنّك تمزح

نظر إليّ بأسي وقد أنْطقه الحزنُ .. قائلاً في نبرةٍ متحسرةٍ :

-الحربُ لمّ تَجعلُ لي رفاهية المزاحِ، الحربُ أكلت الأخضر واليابس، لم يكُن لدينا خيارٌ آخر بعد انّفجار الحرب وتوسّع الاشتباكات بين المسلحين إلى جوار منزلي، سوى الانّتظار وانّتهاز الفرصة حتى تهدأ المعارك قليلاً ومن ثَمَّ الفَرار والنزوح.

١- عامل بناء باللهجه اليمنية

□□□ □□□□□1.indd 29 1/17/18 8:07 AM

الرعبُ كان المغتصب الذى انّتهك كُل حُرماتنا فاسْتباح نفوسنا ومشاعرنا واليقين في قلوبنا

كانت أشباحُ الموتِ تهافت علينا والسقوط في بئرِ اليأسِ يرُوادنا، لمّ نكن نَتخيلُ أنْ ننجو، فنقاط التفتيشِ التي نصبها المسلحون المتقاتلون في الشوارع العامةِ لا تعد ولا تحصى،

القنّاصة يتخذون من المباني العاليةِ موطناً لهم ويحْتسبون أنهم حُرّاس بوابة الانّتقال إلى الآخرةِ، فيطلقون النار على المارة دون التحقق من هويتِهم، قتلٌ لمجرد المتعة، يلُهبُ حماسهم صوت الرصاصِ المتناثِر .. فينّتشون بقنصِ المارةِ والحظوة لمن أجاد وأسهب...

وسارت الرياحُ بما اشتهت السفنُ ونجونا – بحمدِ الله – وتمكنا من الفرار من المدينةِ إلى قريتنا "عزبان" الواقعةِ شمال "تَعَزّ" ومن ثَم جئنا إلى هُنا، .. وها أنا أمامك ..

كنتُ استشعرُ مأساته كلمة، كلمة وأنا على يقينٍ بأن كُل ما أحاول تَمثلهُ لا يُضاهي جزءً صغيراً من الحقيقةِ، وبحركةٍ لا إرادية فتحت مُجلّد الصورِ في الهاتفِ لأتحقق من صور أولادي، شعرتُ فجأة بالغربة، بالحاجة إلى الاحتواء برؤيتهم ووجدته يتْلصص النظرِ ثُم أشاح ببصرهِ سائلاً :

□□□ □□□□□1.indd 30 1/17/18 8:07 AM

أولادك؟

أومأتُ برأسي بصوتٍ خفيضٍ، نعم

حفظهم المولى لك ..

-أمين

حاولت أن اخرجُ من ذلك الجوّ الحزين فقلت .." مُتعبين يا صديقي.. لا شئ يعجبهم، مَللتُ من كثرة طلباتهم وخناقاتهم وجدلهم"

إهتم بِهم .. واحْرص على رعايتهم..

كنتُ مِثلك .. إلى وقتٍ قريبٍ ..

فضحكت هههه كلهم هكذا

تاهت عيناي زميلي اليمني ولمَعتْ وهو يتحدثُ إلي دون أن ينظارني، جِئت بهم إلى هُنا،

وعاشوا معي ستة أشهر، قلتُ لها امْكثي معي أكْثر ..

فأجابت:

اشتقتُ للمة البيتِ ، اشتقت لأبيك حين يُحضّر الفطورَ والاطفال يتحلقون حوله وأنا أتبادل الاحاديث والنكات مع اخوتك..

هُنا أشعرُ أني في سجنٍ... لا أعرف أحداً ولا أحد يَعْرفني ..

□□□ □□□□□1.indd 31 1/17/18 8:07 AM

-ولكنَّ الوحدة تقْتُلني في بعادكم،

أصرّت على الرحيلِ، فالتحفتُ بالصبرِ ونقلتهم إلى تعز وما إن تحرّكت بي السيارة ووصلتُ إلى هُنا .. حتى سَبقني خَبرُ قذيفةٍ سَقطت عليهم فصعدت أرواحهم كلهم إلى اللّه ولمْ يبّق إلا أبي دون أقدام تحمله ..

كاد قلبي أنْ يقفُ من تخيل الحادثة، إلْتفت إليه لمْ أجد على وجهه أي تعابير لحزن أو ألم، كأنما يلبس قناع من فولاذ، وكأنما تجمّدت حياته عِندَ تلك اللحظة ..

صمتُ .. وصمت ..

وأنا أحاول الهرب من فجاعةِ الحادثة متمتماً بالمواساةِ .. ومتهيباً من فتح الحوار مرة أخرى ..

مرّت الدقائق ثقيلة مشبّعة بأحاديثٍ تتشابك كأنها خيوط عنكبوتٍ، لا تعرفُ بدايتها من نهايتها كُلها بلغاتٍ غربيةٍ، بين الهنديةِ والأرديةِ[1] الملايوية[2] .. لا تسمع حرفاً عربياً يُقال...

لمْ تمض دقائق حتى التفتُ إلي الشخص العربي ذو الملامح الشامية سائلاً ..

١- اللغة الأردية لغة هندية آرية وهي اللغة الرسمية في باكستان.

٢- اللغة الملايوية هي اللغة الرسمية لكل من ماليزيا، وبروناي، وسنغافورة، وتستخدم أيضاً للأعمال في تيمور الشرقية. وهي مشابه إلى حد كبير للغة الإندونيسية،

□□□ □□□□□1.indd 32 1/17/18 8:07 AM

-وين رايح هالرجّال ؟

فرددت سينتهي بنا الأمرُ إلى الوادي الكبير.

-وبعدين شو رح يصير؟

-لا علم لي ولكن الأغلب الإجراءات ستنتهى إلى محْضر واتّخاذ الإجراءات الرّسمية ..

من لهْجتك أستطيعُ أن أقول أنّك لبناني ..

-لا والله من حمص حبيبى، حمصي

سوري الجنسية، حمصي الهوية ..

- يعجبني هذا الاعتزاز الرائع بمدنكم، ما أجمل سوريا وطُرقاتها وأشجارها وأجواءها!

- كانت يا صديقي ... سوريا الآن هي أشلاء ممزقة، نحن نتمثلُ التاريخ فقط ليربطنا بأن لنا أرضٌ هناك، بينما عصفَ الواقعُ بمقدراتِنا، لنصبح شعباً جديداً بلا أرض، كُنا نبكي فلسطين لأننا خذلناها ونحنُ صغارٌ، الآن بكينا العراق والشام واليمن وليبيا.. أصبح حالنا كله يُرثى له.

-لعلّ الفرج قريب - لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً -

□□□ □□□□□1.indd 33 1/17/18 8:07 AM

-يا زميل المحبسِ..هُناك قاعدة إلهية تقول:

﴿إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]

حاولتُ دفع الحديث إلى مناطق أُخرى، فسألته عَن نفسه وعملهِ، فانّطلقَ يحدثي عن هروبه من آتون الحربِ إلى هُنا، ثُمّ كيف بدأ يعّملُ بشكلٍ غير نظاميّ ليكُفُل أهله في سوريا

-الواقعُ يدمي ياصديقي، لذلكَ نحنُ نهْرُب منه بالأخْبارِ الخفيفةِ، والانشغال بصغائِرِ الأمورِ، الواقع مؤرقْ، فنتغَافَلَ عنه بأنْ نهملهُ ونغيرُ قنوات الأخْبارِ على أشياءٍ أُخْرى.

وكأنما اخْتصرنا إبادة شعْب في خبرٍ تحْريري في جريدة، وقد أصبحت تتهافت علينا الهوّام كما تتهافت الأكلةَ على الفريسةِ.

كان كلامُه حاداً كطعنات سكين، تتناوبُ يمنة ويسرة في جسدي .. لذلك اتّخذتُ مِنَ هاتفي ذريعة للهربِ من الحديثِ ولربما للهروب من إحساس الضعفِ والمهانةِ.

فتحتُ هاتفي مرة أُخرى ، واتّصلتُ بالمدربِ

أشْتعلت لمبةَ البطاريةِ الحمراء مع كل رنّةٍ يعلو هاجس الفقْدِ

الرنّة الأولى ..

الثانية ..

١-سورة (الرعد:١١).

□□□ □□□□□1.indd 34 1/17/18 8:07 AM

-نحنُ في الطريقِ إليكَ ..

-يا صديقى باللّه عليك أسْرع ..

-أحْضرنا الهويةَ وفي الطريق ..أين أنتم الآن ؟

-نحنُ في طريقنا إلى الوادي الكبير كما أخبرنى الضابط

-حسنا لا تجزع يا صديقي ..و تمثل الصبر فإنه مفتاح الفرج..

إلتفتُ إلى زملاء الزنّزانة فوجدتُ أحدهم مشغولٌ بمراجعة أوراقه الثبوتية وآخر يتحدثُ في الهاتف دون أي مُبالاة، بينما هناك من أطرق رأسه حزيناً و أسندَ رأسه بين كفّيه هائماً في ملكوت اللّه

وفجأة ...توقّفت السيارة مرة أخرى،

فتح الضباطُ بابَ السيارةِ ثُمَ وزّع علينا قارورات مياة مُثلّجة ثم أغلق الباب دون أن ينبسُ ببنت شَفة.

فتحت الزجاجة، أرتّشفتُ منها عدة رشفاتٍ وأغْلقتها

تحرّكتْ السيارةُ مرةً أخرى تراوغ بين حارةٍ وشارع، ونحن نتدحرج يمنةً ويسرة .. نتقافزُ إلى أعْلى كحباتِ الأرزِ تتطايرُ على المنْخُل[1]، وبعد رحلةٍ ذُقْنا فيها تضاريس الارتفاعِ والانخفاض، توقّفتُ بنا السيارة في منطقةٍ مكتظةٍ بسيارات الشرطةِ، وقد

١-المنخل أو الغربال هو اطار خشبي مستدير يغلف باطنه بشبكة من السلك الناعم المفرغ و يتم استخدامه في تنقية الرز من الشوائب .

□□□ □□□□□1.indd 35 1/17/18 8:07 AM

ارّتص أكثر من عشرين سيارةٍ بجوارِ بعْضها البعض.

توقّفت السجن المتنقل، نزل الشرطي ثم اتّجه إلى الشنطة وفتحها:
-انْزلوا ..

ثُم تركهم جميعاً والتفت إليّ قائلاً:

-أنت... إذا لمْ يحْضرُ اصدقاؤك في غضونِ عشْر دقائق، سأحول أُوراقك إلى النيابةِ، وهناك ستكون الإجراءات أعْقد بكثيرٍ من هُنا ..فصحتُ به:

-أي نيابة! الأمر كله أني نسيتُ هويتي في الفندقِ، وأصدقائي سيحْضرونها الآن .. كما أنك أخبرتنى إنك تستطيعُ أن تُراجعُ بياناتي على جهازِ الكمبيوتر المركزي، فما الداعي للتحويل إلى النيابة ؟

-الأمرُ ليسَ كذلك، لابُدَ من عمل محْضر إثبات لوجودك معي بالسيارةِ، ولن يتحققَ الإخلاء إلا بوجودِ من يكْفلُكَ في النيابة .

هممت بالرد ..

فلم يعيرنى انتباها وتركنى وفتح باب السيارة ميمماً وجهه ناحية الباب مخرجاً دفتر المحاضر وأخذ يُشير لرفقاء السجن أن يتقدم كل منهم على حدّه، ثم التفت إلي مرةً أخرى ..

□□□ □□□□□1.indd 36 1/17/18 8:07 AM

-آخر وقتٍ مسموح لديك ..

هو مع آخر شخص أكتبُ محضره ، بعد ذلك أنت في ذمةِ النيابةِ .

أخرجتُ تليفوني لأتصل بأصدقائي، وجدته أعلن وفاته، رحتُ أنْظرُ في الطرقاتِ علَّنى أجدُ شبح سيارتهم في الأفق .. فلم أجد شيئاً،

أعاود النظر إلى الضابط والطابور يتناقص واحداً تِلو الآخر .. والعد التنازلي يبدأ ....

أخذتُ أسأل الناس على السّاعة، وعيوني تنْتظر أي بادرة أمل، حتى رفع الضابطُ صوته وهو منهمك في كتابة محاضر الاخرين

-تبقى لك اثنان وتشرفنا على توقيف النيابةِ .. سَتُسرّ به - إن شاء اللّه-.

كنتُ أنظر إلى ابتسامته الساخرة وقد علّقت كل آمالي بهذه الدقائق البسيطة، متخيلا نفْسي أكُملَ هذا اليوم بالمبيت في التوقيف[1]، على أن أتّصلُ بأحدٍ من معارفي أو عملائي ليأتي ويكْفُلني .

ناداني الضابطُ ..

و أخذ يسألني عن بياناتي، وبينما أنا أعضُ على شفاهي لحظات الندمِ، وجدتُ سيارة شرطة قادمة وقدّ علا صوتُ السرينة وخلّفها

١-الحجز وعادة ما يكون غرفة داخل قسم الشرطة حتى يتم عرض المتهمين على النيابة .

□□□ □□□□□1.indd 37 1/17/18 8:07 AM

سيارة أصدقائي؛

السيارتان تسيران بسرعةٍ، وقد فتحت سيارة الشرطة المجال لسيارة اصدقائي بالمرورِ دون عواقب، حتى دخلت نطاق قسم الشرطةِ ونزل صديقي بسرعة،

أخبره شرطي بضرورة إخراج السيارة خارج حرم القسم،

فاسْتأذن دقائق ليسلّمني هويتي قبل أن يحرك السيارة، وهرْولَ حتى لاقاني .. فابتسم الضابط ابتسامةً صفراء قائلاً:

-للأسف بدأنا في المحْضر ..

إلتفتُ إليه، والشرر يتطايرُ من عيني وقلت :

-ماذا يعنى ؟ ..

-لابد أن تُرحّلُ إلى النيابة ..

ارتفع صوتي وأنا أُجادله،

فجاء ضابط كان يسيرُ بجوارنا، فسأل عن الواقعة. فرد الضابط عليه بأدبٍ جمٍ ..

□□□ □□□□□1.indd 38 1/17/18 8:07 AM

فأشار الضابط .. قائلاً

إذا حضرت الهوية بَطُلَ سبب التوقيف.

تكفيك هويته يا زميلي

الهوية تكفي ...

دعْهُ يرْحلُ.

□□□ □□□□□1.indd 39 1/17/18 8:07 AM

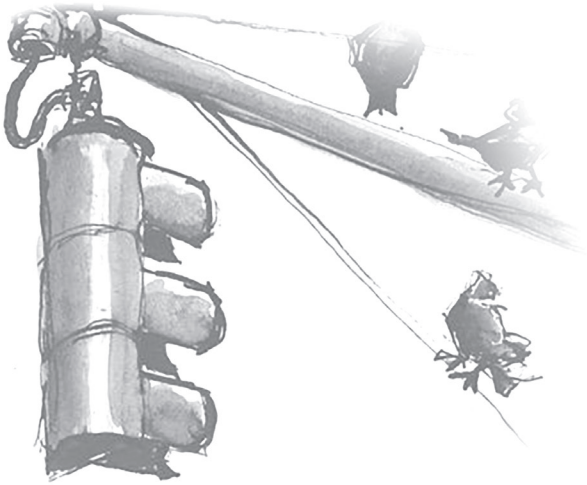

□□□ □□□□□1.indd 40 1/17/18 8:07 AM

إشارة حمراء

الإشارة حمراء والطابور طويل، والمحلات تتنافس بعرض زينتها، هاجت مشاعر الشوقِ لرائحة الطعمية المصرية وخاصةً وأن هذا المحل الوحيد الذى يقدم الطعام المصري في هذه المنطقة، استسلمتُ لحنين الطعمية الساخنة، ركنتُ سيارتي على جانب الطريق، ودلفتُ للمحل لشراء بعضٍ منها.

□□□ □□□□□1.indd 41 1/17/18 8:07 AM

-ربّما مع إجازةِ نصف العامِ يا نسرين ..

مشغول هذه الأيام، الأعمال لا تنتهي،

نعم سأُسافِرُ إلى الصين الأسبوع القادم لإنهاء صفقة الماكينات...

أعرفُ

أعرف

ولكن لن يسعني الرجوع من الصين كي أسافر إلى مِصر

لديَّ التزاماتٌ أُخرى هُنا ...

كفى يا نسرين أرجوكِ

أنا لمْ أُهْمِلكِ يومًا ...

العمل ليس أهمُّ منكِ،

ماذا أفعلُ أخبريني؟

تعبتُ يا نسرين، تعبتُ من كثرة الضُّغوط.

-ألمْ تعد تحبُّني؟

-بالتأكيد أُحبك

لكن لا أعْرفُ ماذا أصابني اليوم

يجتاحني شعورٌ جارِفٌ بالغربةِ والتِّيه!

□□□ □□□□□1.indd 42 1/17/18 8:07 AM

سامحيني حبيبتي

أفتقدُكم بشدَّةٍ

سأُعاوِدُ الاتصال بكِ عندما أعودُ للمنزلِ.

خمسُ دقائق فقط تفصلُني عن المنزلِ، أُرافق هذا الطريق منذ أكثر من ستةِ أعْوامٍ، يُقارِعُني التفكير في الانْتقال إلى بيتٍ يجاوِرُ عملي، يرحُمني منَ اسْتنزافِ ما تبقَّى من يومي في القيادة وسط طُرُقٍ مُتخمةٍ بالسياراتِ.

"على الطريق يُصافِحُنا الصباح مُفعمًا بالأملِ، في كَفِّهِ باقات وُدٍّ ونسائم حُبٍّ يهمسُ في آذاننا، يومٌ جديدٌ مُشرِقٌ سعيد، صباح جديد عليكم أيها السادة المستمعون نلتقي معكم في برنامج السادسة صباحًا .. صباح النشاط".

هذه هي الشارة التي يستهلَّ بها صباحي كل يومٍ، مع بدءِ إرسال الإذاعة وأنا ذاهبٌ إلى العمل، فأكون أول من يطأ باب الشركةِ، وأخر من يخرج...

خمس دقائق أشعر أنها طويلةٌ، مُملةٌ، رتيبةٌ، أُحِسُّ بثقَلِها على أنفاسي كجبالٍ تكوَّنت بشكلٍ مُتراكمٍ على مدار سنواتٍ طوال.

لا أعرف، إن كان هذا الشعور ينتابُني لوطأة المسؤولية من تَبِعات منصبي رئيسًا تنفيذيًّا لشركةٍ تجاوزت فروعها الاثنى عشر فرعاً

□□□ □□□□□1.indd 43 1/17/18 8:07 AM

داخل البلاد وخارجها !

أم نتاجًا لإحساس الملِ الذي أصابني من غُربةٍ

امتدت عشرون عاماً.

أثارَ انتباهي توقُّف السيارات عن الحركة ووجود شرطيٍّ على حافةِ الطريق يفصلُ بين متخاصمين وقد صاح:

-أنت مواطن ولا أجنبي؟

-واللّه ما بعرف إذا فيك تسميني مواطن ولا أجنبي، لكن اللى بعرفه إني عربي!

-أبو الشباب ما تتفلسف، أعطيني إقامتك..؟

أغلقتُ النافذةَ، فلم يسترعني مُشاهدةُ باقي المشهد، فبالرغم من النجاحات التي قد تُحقِّقُها في الخارج

يَظلُّ الوطن وطنًا شئت أم أبيتَ.

يَنتابُني حنينٌ صاخبٌ إلى أمي وأبي -رحمهما اللّه- أفتقد دِفءَ الأسرة بعد زواج ابنتي "خولة" منذ ثلاثة أشهر، واستقرار زوجتي في شقتنا في مصر الجديدة بعد أن دخل "أيهم" الجامعة، وحالَ الحَوْلُ على "فِراس" في الثانويةِ العامة.

□□□ □□□□□1.indd 44 1/17/18 8:07 AM

- كل سنةٍ وأنتَ طيِّب يا حبيبي

- كل سنة وأنت طيب يا بابا .. يا أحلى أب في الدنيا

التفَّ الأولاد حولي، وكلٌّ يحمل هديته بين يديه، ونسرين تطبعُ قَبْلَةً حانيةً على خدي، والأولاد يصيحون في صوتٍ واحدٍ:

- أغمض عينيك لترى الهدايا

لتغمرني نسرين والأولاد بهداياهم الجميلة وكلماتهم الرقيقة، وهَمْسُ نسرين الدافئ في أذني:

-كل سنةٍ تزدادُ فيها وسامةً وجاذبيةً.

ها قد بلغتُ السادسة والأربعين، كأنه عمرٌ لم أعِشه، قضيتُ أغلبه غريبًا بين أحضان الغُربة؛ لا أصدقاء ولا زُملاء؛ كلهم مؤقتون، الغربة كأسٌ من الماءِ بطعمِ الحنْظل.

مُغيَّبون أولئك الذين يحصرون النجاح والسعادة في الغُربة فقط؛ يغلُب عليهم الظَّنُّ بأن المغترب يحصدُ أمواله في أَجْوِلَةٍ، أن المغْترب إلى بلد خليجي يُعيَّن في وظيفةِ أمير، وتكون أجرته في نهاية كل شهرٍ براميل عدة من البترول!

قطع دابر الفكرة رنين الجوالِ مصحوبًا باسم الدكتور يسري صديقي في السفارة المصرية؛

□□□ □□□□□1.indd 45 1/17/18 8:07 AM

لا بُدَّ أنه سيُحدِّثُني في إيجاد فرصةِ عملٍ لوافدين جُدد بعد أن نكّث الكفيل عهوده أو كفالتي لمن يحترفون المغامرة ولم يلتزموا بالأنظمة

لم يطل الرنين، فكأنما غيَّر المتصل رأيه؟

فأرجأتُ مُعاودة الاتصال به حتى أصلَ البيت

اجعلْ كل أوراقك في حزامٍ على وسطك

كُنْ حذراً

لا تُصاحِبْ أحدًا لا تعرفه

الناس في الغربة يتغيرون

اتْرُكْ عنك هذه الطِّيبة

لا تكلفُ نفسك ثمن الاتصال بنا في الفترة الأولى حتى تستقرُّأمورُك، حوِّش مرتبك، امسك على نفسك، ما "تبعزقش فلوسك عمال على بطّال، القرش الابيض ينفع في اليوم الأسود"

-لقد حفظت هذه الوصايا يا جابر فقدّ كررتها عليَّ أكثر من خمسِ مراتٍ للآن

-لستُ صغيرًا إلى هذا الحد!

اغْرورقت عيني جابر بالدموع وهو يحتضنُني:

□□□ □□□□□1.indd 46 1/17/18 8:07 AM

-أوعى تنسى نفسك يا شهدي

رفعتُ رأسي بنظرةٍ حادةٍ، كلُّها - عدة سنوات - أقفُ على قدميّ وأعود مرةً ثانية

أنا لستُ كالآخرين، الحياة بدونكم ليست حياة، فكيف تطيبُ الحياة دون لقاء يوم الجمعة الذي يجمعُنا على مائدة غداء واحدة، كيف أتنسَّمُ الصباح دون أن يكون مُعبَّقًا بدعوات أمي!

أمي.. أين هي الآن؟!

بحثتُ عنها .. يا حجة!

يا أم جابر ...

يا أم شهدي ..

يا ست الكل

أجابني الصَّمتُ، وشيءٌ من نشيجٍ مكتوم، فأزمعتُ دخول غرفتِها، فردَّني صوتها مُتحشرِجًا طالبةً مني التَّريُّثَ لتفتحَ الباب. عيناها تتلألآن بدموعٍ محبوسةٍ محاولةً التماسُك كي لا تصبغُ فرحتي بالسفر بتَرَحِ الفِراق:

"حبيبي يا شهدي ..أنت نور عيني وقلبي، أنت أصغر إخوانك، مش متخيلة إنك تسافر، محدش منكم سافر قبل كده وسابني، ومش عارفة الأيام هتجمعنا تاني واللا لا...

□□□ □□□□□1.indd 47 1/17/18 8:07 AM

أنا كبرت ولم يبقَ في العمر مقدار ما مضى كان نفسي تفضل جنبي أشوف أولادك وأربيهم، فاكر لما قلت لي حكاية الشيخ الجيلاني[1]؛ لما سافر من بلده علشان يطلب العلم وأمه ودعته ورجع ومش لاقاها.. أنا حاسة إنك هترجع مش هتلاقيني يا حبيبى"

قطع جابر حديثها:

- "استهدي بالله يا حجة، كل شئ بعلم الله

يا عالم ربنا كاتبلنا إيه!"

انفطرت القلوب حزنًا، ولم يعالجها إلا ابتسامةُ أمي وهي تمسحُ دموعها وتقبِّلُني داعيةً لي بأن أعودَ إليها سالمًا غانمًا.

ومَرَّت الأيام، يُطارِدُني حلمُ الاستقرار بشقةٍ، أعقبه حلم سيارة تنقذني من براثن المواصلات، فمدراس أجنبية أضمن لأولادي بها مستقبلاً. وأصبحتُ كالثور في ساقية الغربة

وما عاد لي من رادعٍ غير نفسي

تيت تيت تيت ..

١-للشيخ عبدالقادر الجيلانى قصة شهيرة عندما ذهب يطلب العلم وأمه شيخ عجوز وكانت تحبه حباً جماً فغالبت حبها ووافقت على سفره وعندما عاد كانت قد انتقلت إلى الرفيق الاعلى

□□□ □□□□□1.indd 48 1/17/18 8:07 AM

-يا خوي وراك ما تمشي، تبيني أدفك[١] ولا وشو[٢]؟

لا أعلم تفسيرًا لهذا الجنون، الطريق غاصٌّ بالسيارات كبحرٍ يعجُ بالأمواجِ، فهذه تلاحق تلك في حركاتٍ متتاليةٍ، ببطء وكأن الناس قد أُبْهِمَ عليهم ذلك وأُلْغِزَ، فلا يروْن ذلك أو يتجاهلونه

فالسيارة التي بجواري ليس لها مُتَّسعٌ، ومَنْ خَلفَه يُصِرُّ على أن يسمم آذاننا بإلحاحه.

مات جابر بعد كفاح طويلٍ مع المرض، لم تتجاوز مساهماتي فيه إلا تحويلات نقدية فحسب...

لم أُهوِّنْ عنه، لمْ أرافقه للمستشفى إلا مرات معدودات، لم أمسح على شعره وهو على السريرِ الأبيض، لم أملأ عينيّ بملامحه.

مات السَّندُ الذي أتوكأُ عليه، ولا أدري أفارقني أم فارقته!

و تمرُّ السنوات لتتزوج ابنتُه، ولم ألتقِ زوجها إلا مرتين؛ الأولى عند خطبتها والثانية في ليلة العُرس.

تَخرّج أولاد إخواني من الجامعة وأنا كعُصفورٍ يحطُّ على غُصنٍ لحظاتٍ بلا وطنٍ يؤويه كالغريب.

الدقائق تمرُّ حُبلى بالذكرياتِ

١- أدفعك

٢- تعني الاستفسار باللهجة الخليجية

□□□ □□□□□1.indd 49 1/17/18 8:07 AM

والسيَّارات مُتراصَّة بظاهر يعبر عن ثقافةِ الالتزام وباطن يُبْرزُ ثقافتنا كشعوب عالمٍ ثالث.

(تيت.. تيت.. تيــيت..)

غير معقول هذا الهوس بالسرعة...

الإشارة ما زالت حمراء، ومن خلفي يطلق بوق سيارته، وكأنما يلّتهم الأسفلت في مضْمار سباقٍ، انتحيتُ جانبًا لأسمح له بالمرور، وأن يلحقُ بسرعته الجنونية الإشارة الحمراء التالية على بداية الطريق.

"الغربة كربة، يا بني" قالتها أمي، وعشتُها بعد أن كبر أولادي؛ اضطررتُ لأن أنكث عهدي وأتركهم في الوطن فرادى، وأعود كشبحٍ بلا روح، دوره اكتناز المال وتحويله لهم.

راحةُ يَدٍ ناعمةٌ تكتسي قُفَّازًا أسود تطرق زجاج السيارة بشكلٍ رُوتيني، تتنقل من سيارة إلى أخرى حتى جاء الدور عليَّ، تتَّشحُ المرأةُ بالسواد من قِمة رأسها لأخمصي قدميها، تشيرُ إلى فَمها طالبة الطعام، فالصوت يفضح اللهجة ويهتك ستر الجنسية التي تلّتحفُ العباءة السوداء ساتراً

في الغربة يسقط البعض في فخ ميكافيلي[1]، حيث كل الوسائل متاحة لتحقيق غايتهم، فكلُّ القِيم والأخلاقيات معروضة للبيع في

١- مؤلف كتاب الامير وصاحب مقولة الغاية تبرر الوسيلة.

□□□ □□□□□1.indd 50 1/17/18 8:07 AM

سبيل مبلغٍ من المال

التفت إليها ثواني، فلم تمهلني لأردَّ عليها، فأشاحتْ بوجهها سريعًا مُنتقلةً إلى زُبونٍ آخر.

التفتُّ إلى الطريق متأمِّلاً استقامته، تقطعه إشارتان للمرور، تتجاور على جانبيه محلات الطعام وزينة السيارات .. تأملتُ المركبات من حولي، كلٌّ منها في عالمٍ مختلفٍ، من يسمعُ الكاسيت بصوتٍ عالٍ، وآخر مشغول بهاتفه المحمول، وثالث يمسك الجوال ليصور أصدقاؤه، وهم يتبخترون، وقد تشبّثوا بجانب السيارة، والأيادي الأخرى معلقةٌ بباب السيارة المفتوح، وأرجلهم تركّلُ الأسفلت في حركاتٍ راقصة، والسيارة تمشي على استحياء كأنها إحدى الرقصات التراثية.

-اجلس يا شهدي ... أعرفُ أن هذه هي أول مرة تسافر فيها خارج مصر، لكن لا بُدَّ أن تعيَ شيئًا مُهمًّا، أن ثقافة الحياة هنا مختلفة، الاستهتار سِمةٌ للبعض حيث يناوشون العبث فيغلبونه

الاستهتار يشمل كل شيء؛ بأشغال الناس والتزاماتهم، السيارات هنا لا قيمة لها، ويصل الاستهتار في بعض الأحيان بحياة الناس ككل. فبعض الأمور تحتاج إلى سَعَةِ صدرٍ، ولا أريدُ أن يتكرر ما حدث مع زميلك نايف، وظني أنك ستكون شيئًا مميزًا في مجالك بعد سنواتٍ قليلة.

لعلَّ دُعاءَ أمي هو من يسَّرَ الأسباب لأتعرف إلى د. أحمد هلال

□□□ □□□□□1.indd 51 1/17/18 8:07 AM

ليأخذ بيدي ويُعلِّمُني ويدلُّني كيف أبني حياةً جديدةً هنا.

الإشارة حمراء والطابور طويل، والمحلات تتنافس بعرض زينتها، هاجت مشاعر الشوقِ لرائحة الطعمية المصرية وخاصةً وأن هذا المحل الوحيد في هذه المنطقة، استسلمتُ لحنين الطعمية الساخنة، ركنتُ سيارتي على جانب الطريق، ودلفتُ للمحل لشراء بعضٍ منها.

مرَّت لحظاتٌ ليست بالطويلة، سمعتُ صريرًا حادًّا لفرامل سيارةٍ، لم أُعِر الموضوع اهتمامًا، فالشباب في هذه المنطقة يتباهون بقدرتهم على الاستعراض بسياراتهم، تعودت أذني هذه الأصوات، قلّما تخلو ليلةٌ لا أسمعُ فيها صيحاتهم وهم يلهون في الساحة التي تقع أمام المنزلِ .

-شطيرتين من الفول والفلافل وبعضًا من المخلل لو سمحت؟

جلبة كبيرة في الخارج على غير العادة، فراودني الفضولُ في اكتشاف ما يحدث، رغم علاقة الشِّقاق بيني وبين الفضول، وتذكَّرتُ كلام نسرين:

-"أنت لو الدنيا اتقلبت مش هتقوم من مكانك، إيه البرود ده!"

- مش برود يا نسرين، ولكن الرضا بالقضاء والقدر، لا داعي لأن أتدخل فيما لا يعنيني.

خرجتُ فوجدتُ كوكبةً من الناس في دائرتين مُنفصلتين؛ الأولى

□□□ □□□□□1.indd 52 1/17/18 8:07 AM

بجوار المحل، والدائرة الثانية أبعد قليلاً.

خَطَرَ ببالي أنهم بعض الباعة الجائلين، يلتفُّ الناس حولهم كالعادة، كدتُ أعود إلى المحل، إلا أن صوت الصُّراخ دَحَضَ الفكرة، فأسرعتُ، فرأيتُ عجوزًا مُتكوِّمًا على الأرض، شعرُه أبيض، ذو جسدٍ ضعيف، لحيتُه طويلةٌ مُخضَّبةٌ بالحِناء، وقد زاغ بصرُه وتناثرت كروت شحن للموبايل بجانبه يسْترزق منها.

تحسستُ أنفاسه، صدره بالكاد يتحركُ، كدمة كبيرة في رأسِه، النبضُ يظهر على استحياء، الناس مُلتفةٌ حوله دون فائدة.

-إسعاف .. أريد إسعافًا بسرعة .. الرجل يموت ..

-أفسحوا الطريق ..

همَّ البعض أن يُنحُّوه إلى الرصيف.

- إياكم فلربما به كَسْرٌ يؤدي إلى موته- لا قدر الله - بل تحلّقوا حوله حتى تأتي الإسعاف، ركضتُ بسرعةٍ في اتجاه الدائرة الثانية، المصاب شخص آخر قويُّ البِنيةِ مُسجًّى على الأرض، التفَّ الناس حوله وقد رسم الدم بُحيرةَ مُتخثِّرةً بجوار رأسه، وخالَط اللون الأحمر الأبيض، كأنها لوحة تشكيلية بيد كارافاجيو[1] يتصارع فيها الموتُ والحياة

أيُّ إهمالٍ هذا الذي يجعلُهم ضحايا لرغبات شابٍّ يستعرضُ

١- من أشهر الفنانين التشكيليين في عصر النهضة.

□□□ □□□□□1.indd 53 1/17/18 8:07 AM

قُدراتِه بالسيارة دون مراعاةٍ لحَقِّهم في الحياة؟!

أيِّ ذنبٍ جعل ولدا لم يَشُبّ عن الطوق يقضي على آمال أسرةٍ، ويقضي على راعيها؟!

بأيِّ حقٍّ يسلب منهم حقَّ الحياة؟!

ما ذنبهم

ما جريمتهم؟!

أكُل جريمتهم أنهم يحاولون أن يعيشوا حياةً كريمة؟!

توافَدَ البعضُ في محاولةٍ لتهدئتي والإيعاز بأن ذلك - قَدَرُ اللّه- عبرتُ الشارع إلى الجهة الأخرى لأتَّصِلَ بنسرين، كنتُ بحاجةٍ لمن يسمع

صُراخي

شكواي

لم أتخيل لحظةً أن حياة الإنسان رخيصة إلى هذه الدرجة!

هذا الشيخُ يمثلُ قِصةَ كفاحٍ، قد تَرَكَ بلدَه سواء بسبب الحروب أو ضيق ذات اليد وذهب إلى آخر الدنيا ليكفلَ أولادَه وزوجتَه وأحفادَه بقُوتٍ حلالٍ ليكون مصيرُه مُعلقًا برعونةِ شابٍّ يودي بحياته.

-ما بك يا شهدي؟

□□□ □□□□□1.indd 54 1/17/18 8:07 AM

– قتلوه يا نسرين ..

قتلوه بلا ذنبٍ

كل ذنبه أنه يبيع كروتًا للشحن في الشارع.

كل ذنبه أن شابًّا أرعنَ لا يعلم قِيمة الحياة استلبها منه

قتلوه يا نسرين!

تكرَّرَ في أذني صوتُ صرير الفرامل مرةً أخرى، ولكن هذه المرة أشدّ، ليسقطُ الهاتف

أسمع نسرين تنادي:

شهدي ..

شهدي

رُدَّ عليَّ ..

رُدَّ عليَّ يا شهدي!

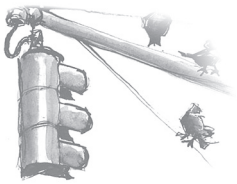

□□□ □□□□□1.indd 55 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 56 1/17/18 8:07 AM

النـــداء الأخير

"كرباج ورا يا اسطى" كانت تتعقبه تلكَ الصيحات وهو يختلس الفوز بامتِطَاء عجلات الحنطور ليحْظَى بتوصيلةٍ مجانية من سوق التلاتين إلى منتصفِ الطريق إلى البيت، لا يفضحُه إلا صيحات الأولاد الحاقدين عليه بتحفيز السائق بإرسال لسعة من الكرباج إليه، وهو المختبئ في ظهر الحنطور...

□□□ □□□□□1.indd 57 1/17/18 8:07 AM

ترجَّلَ فايز من سيارتِه الفارهة بعد أن أوصَى سائقه بالتوجُّه مباشرةً إلى منزله ليقضى حوائجَ الأُسرة، على أن ينْتظر منه أو من سكرتيره اتصالاً يُحدِّدَ له موعد عودَتِه إلى المطار لِيُقِلَّه إلى العمل.

في المطار كلُّ شخصٍ وله عالَمُه الخاصّ، الذي تنظمه دقائقُ الساعة بانتظام، خلية نحل تعمل أربعاً وعشرين ساعة دون توقُّفٍ بابتسامة مَرِحَةٍ تحتوي أي مُحاولةٍ للخروج عن سَمْتِ المكان بصوتٍ مرتفعٍ أو مللٍ من تأخُّرِ أصابَ رحلته.

-أهلاً وسهلاً فايز بيه، كعادتك دايمًا مبكر في مواعيدك.

أومأ فايز إلى الرجل بابتسامة وأتبع ذلك: المواعيد هي جزء من ثقافة الشخص وتربيته.

-شنطة واحدة يا باشا ..

توصل بألف سلامة، ممكن حضرتك تستريح في قاعة رجال الأعمال، وسوف ينادون عليك لركوب الطائرة..

توجَّه فايز إلى قاعة رجالِ الأعمال، جلس بهدوءٍ على كرسيٍّ معتدلِ الظهر، انسلَّت يداه إلى حقيبته الصغيرة ليخرجَ جهاز تابلت أسنده على كفه، وأخَذّ يتصفح بريدَه الإلكتروني، كلُّ تصرفاتِه كانت ميكانيكية مُرتَّبٌ لها، يسودُها الوقار والأناة، "مليونان وأربعمائة وخمسون ألفًا، ستمائة وثلاثون ألفًا، مائتا ألف و ثمانى

□□□ □□□□□1.indd 58 1/17/18 8:07 AM

مائة" أرقام متوالية تصطفُّ في ذهنِه كمصفوفة كشف حسابٍ بنكيّ تتراءَى أمامه على شاشة التابلت في عملياتٍ إمَّا يعتمدها أو يُوقِفها أو يُلغيها، أخْرَجَ من حقيبته ورقةً صغيرةً وقلمًا، وأخذ يسطر ملاحظاتٍ على الأرقام بخطٍ صغير .

-راح في حوارٍ خاطفٍ مع نفسه ..
السفرُ في هذه الفترة غيرُ مناسب ولكن "الإنجليز عايزينى أسافر أوقع العقد، والأمر لن يستغرق أكثر من يومين أو ثلاثًا بالكثير وأعود".

ثلاثة أيام في عُرْفِ العمل قليلة وفي عُرفِه شخصيًّا دهرٌ طويلٌ، كان مُتضرِّرًا من السفر إلا أنّ الشركة الإنجليزية لم تَدَعْ له فرصة للرفض أو التأجيل هذه المرة، فحسمت الأمر بإيميل حاد اللهجة: "إن أردتَ رُخصة الفرانشايز[1] فعليكَ بالحضور لتوقيع العقد اليوم قبل غداً، انتهى"، ورغم مشاغلِه التي لا تنتهي وافتقاره لبديل يتكئُ عليه، اضطُرَّ إلى رحلة عمل سريعة ثلاثة أيام -على الأكثر- لإنهاء التعاقُد، خاصة وأنه سيفتح عليه باب رزق كبير، فسيمنحه قُدرة المنافسة على المناقصات الحكومية التي تشترط أن تكون الشركة عالمية أو ذات تحالُفٍ عالمي.

١-كلمة فرنسية الأصل، وتعني باللغة العربية (الامتياز التجاري) توصف الحقوق والامتيازات الممنوحة لصالح شركة محلية من شركة عالمية حيث تمثلها في السوق المحلي بنفس العلامة التجارية والممارسات السوقية .

□□□ □□□□□1.indd 59 1/17/18 8:07 AM

تأمَّلَ ساعته، وعيناه تتناوبان النّظر مابين متابعة رسائل الواتس آب والإيميلات في توجيهات مباشرة لموظفيه.

اثنتا عشرة سنة من الكفاح المستمر ليبني اسمًا لشركتهِ من محلٍ صغيرٍ لبيع قطع غيار الماكينات إلى شركةٍ كبيرةٍ يتجاوز عدد موظفيها مائتي موظف، عَمِلَ فيها في كل المواقع: عامل تركيبات، محاسبًا، أمين مخزن، مُشرفًا على العمال، لم يترك وظيفة إلا تعلَّمها واشتغلَها بيديه.

"لا يحكُّ جلدَك مِثْلُ ظُفرِك"، فلا أحد يشعُرَ بقيمة المال إلا صاحبهِ، ولا أحد يهتم لِنجاحَك كما أنت، لذلك حرصتُ على أن أُمسك مفاتيح العمل بين أناملي، فمجال الأعمال هو مجال الفُرص. والذي لا يجُيدَ قراءة الفرصة سيظلُّ دومًا مُسجًّى بينَ الحُفر لا يرى لون السماء .

-النداء الأخير.... إلى طائرة الإمارات المتجهة إلى دبي، الرجاء من الركاب التوجُّه إلى بوابة رقم ٣٦ لركوب الطائرة.

قطَعَ النداء حبل أفكارِه، وأخَذَ يُلَمْلِمُ أغراضَه استعدادًا لركوب الطائرةِ. مع وقْعِ خطوات قدميَّ في الممر المُوصِّل للطائرة، كنتُ مُنشغلاً بالصفقة، وإن تهافتت عليَّ أشباحٌ من الماضي من نوافذ الممر: منظري وأنا أجلسُ على أبواب المساجد بصندوق أجمع فيه شيئًا من الإكسسوارات، انادي عليها عَلَّ أحدًا يشتري منِّي،

□□□ □□□□□1.indd 60 1/17/18 8:07 AM

إما بوازعِ الرَّأفة أو بُغيةِ الصَّدقة، تهافت عليَّ صورتي وأخوتي نلتفُّ حول الطبْلية الخشبيةِ المستديرة، تخْتَلف أيدينا على صحنٍ به بعض أقراص الطعمية،نقْتَسمها فيما بينا حتى لا تقْبَل القسمة بعد.

ابتسمتْ المضيفة ابتسامةً رحبةً على بابِ الطائرة، وأَخذّت كعب التذكرة لتحدثني بإنجليزيةٍ تشوبها لكنة غريبة ... رجالُ الأعمالِ من هُنا سيدي، كرسيّك الثاني على اليمين .

"كرباج ورا يا اسطى" كانت تتعقبه تلكَ الصيحات وهو يختلس الفوز بامتِطَاء عجلات الحنطور[1] ليحْظَى بتوصيلةٍ مجانية من سوق التلاتين إلى منتصفِ الطريق إلى البيت، لا يفضحُه إلا صيحات الأولاد الحاقدين عليه بتحفيز السائق بإرسال لسعة من الكرباج إليه، وهو المختبئ في ظهر الحنطور...

ابتسم فايز ونفض عنه الذكريات، تلفَّت لحظاتٍ يبحث عن مكان يضعُ فيه جاكت البدلة، ولم يطل تلفُّته حتى قصدته المُضيفة بابتسامةٍ ودودةٍ، طالبةً بإنجليزيتها ذات اللكنة المميزة، أن تساعده في أخذ الجاكت وتُريحَيه من عناء التلفُّت، سلمها الجاكت، و ما لبث أن أَخْرَجَ التابلت مرةً أخرى وثَّبته على مسند الكرسي لتضئ شاشته بمؤشراتِ سوق المالِ من جديد.

١-عربة خشبية يجرها حصان أو عدة أحصنة تعتبر وسيلة نقل خفيفة، بسيطة، تتسع لشخصين كانت منتشرة في العصور الملكية .

□□□ □□□□□1.indd 61 1/17/18 8:07 AM

-السادة الرُّكاب: نسعدُ باختياركم طيران الإمارات، ستُقلِعُ الرحلة من مطار القاهرة الدولي إلى مطار دبي الدولي،مدة الرِّحلةُ ساعتين ونصفٌ، سنحلق على ارتفاع اثنين وثلاثون ألفَ قدمٍ...

تقدَّمت المُضيفة إليه بفوطةٍ بيضاءٍ مُشبعةٍ بالبخار الساخن ليغسلَ بها وجْهَهُ من عناء الانتظارِ، مسح فايز وجهه وأعاد لها الفوطة، فالتقطتها بابتسامةٍ دافئةٍ مُتَمَتِمَةً

- نتمنَّى لك رحلةً ممتعةً.

أخرج فايز الورقةَ الصغيرةَ، وأخَذَ يكتُبُ ملاحظاته من جديدٍ، ويرسل رسائِل توجيهيَّةً إلى موظفيه، قَطَعَ انشغالَه صوتُ المضيفة من جديد وهي تحْمِلَ صينيةً مذهبةً فاخرةً، عليها القهوة العربية، وحبات من التمر الفاخر المحشو باللوزِ مُغطَّى بحبَّات السُّمسم قائلة بابتسامة ودودة:

ما رأيك بشئ من القهوة مع التمر ..

التقمتُ حباتٍ من التمر وكوب القهوة، شاكراً لها اهتمامها، فردت بنفس اللكنة المميزة :

-أتمنَّى أن تنالَ القهوة والتمر إعجابك.

نوعية الخدمة أساس النجاح في أيِّ عملٍ مباشرٍ مع الجمهور، وشركات الطيران تحرص على استقطاب الكفاءات وتدريبهم

□□□ □□□□□1.indd 62 1/17/18 8:07 AM

ليحققوا بذلك مستوًى مميزًا من الخدمة؛ لتتكامل خِدماتها من الرحابةِ إلى الفخامةِ إلى دفءِ الاستقبالِ لتشعر أنك في بيتك، لذا.. هذا أحد الأسباب الرئيسية التي أحتكم إليها في توجية السكرتارية في حجوزات الطيران في أي رحلةٍ أقوم بها.

-الصحف ...

هل تُفضل الصُحُفَ العالميةَ أمّ العربية؟

التفتَ إليها دون أن ينْظَر ليقتنيَّ أول جريدةٍ تقابل يده على المنضدةِ ثم وضعها إلى جوارِه، تنحنحت المُضيفة في مُحاولةٍ للفَتْ انتباهه

-هل ترغبُ في نوعيةٍ معينة من الصحف ؟

وكأنما أدركَ فايز قلة ذوقِه فالتفت لها:

-نعم .. هل لديكم الهافنجتون بوست؟

ترددت المضيفةُ قليلاً لتحسم أمرها...

-ثوان سأخبرك ..

تركت أمامه طاولة الصحفِ لترجع، وقد أحضرت معها الجريدة، أخذتها منها مُمتنًّا لفعلها بكلماتٍ مُقتضبةٍ.

مُكتظة الصحفُ بالأخبارِ الباهتة،السياسة تحتلُّ دور البطولة بينما تظهر أخبار الاقتصاد على استحياء، تصفحت الجرائد

□□□ □□□□□1.indd 63 1/17/18 8:07 AM

منتقلاً من واحدة لأخرى، دون أن أجدَ إلا أخبارًا قليلةً تُحفِّزُ اهتمامي لقراءة تفاصيلها.

ناظرت هاتفي الجوال، وجدتُ أيقونة الرسائل تومضُ، فتحتُها لأجدَ رسالة من شيرين:

" أنا والبعد ألدُّ الأعداء، فإن قضى أن تذهب وحدك، فلا تكن له عونًا عليَّ، وحشتني فقط لا تكفي .... "

جميلةٌ أنتِ يا شيرين بكل ما فيكِ .. برقَّتِك، وخِفَّةِ دَمِك، وأصالتِك ورُقي خُلقِك، رغم أن زواجنا كان تقليديّاً إلا أنه كان أكبر نقلةٍ في حياتي، نقلني إلى مرحلة الاستقرار والتخطيط والفضل بعد الله فيما حققتُ إلى حكمتكِ في إدارة دَفَّة الحياةِ.

تألَّقت عيناهُ وهو يردُّ على شيرين:

"وعمر واحد معك لا يكفي .. أُحبك"

رجل الأعمال الجيد هو الذي يُجيدُ قِراءة الإعلام، يُحلِّلُه، يقرأ ما وراء الخبر، يستطلع بأنفِه المخابراتي ما سيكون؛ ما توجُّهات الحكومة؛ وتنبؤات العالِم في مجاله ؟

ما هي القرارات التى تؤثر على مجال عمله وصناعته؟ يجتهد في استغلال الفرص وحماية مكتسباته.

□□□ □□□□□1.indd 64 1/17/18 8:07 AM

"تحرَّك ولا تكن إمعةً يُحرِّكُكَ العالَمُ"

نَهَضَ مستر شكري من على مكتبه، وأنا أتابِعُه بإمعانٍ، كنتُ ناقِمًا عليه من أسلوبه القاسي، فيكفي أني كنتُ أعملُ لديه كل شيء:

كنتُ الساعي والسكرتير والسائق وعامل النظافة،

كنتُ "أنا الشركة"، يبدأ عملي من الساعة السابعة صباحًا، وينتهى .. لا أعلم متى ينتهى بالضبط !

فأنا أعمل حتى يقنع هو بأنى لبّيتُ كُلَ احتياجاته، كنت أنا من يغلق باب المكتب في نهايةِ اليوم ما بين الساعة العاشرة والحادية عشر، وعادة ما كان يكلفنى بأعمالٍ شخصية بعد المكتبِ، كأن أحضر أغراضاً للمنزل أو لزوجتِه مدام وفاء ..

كل ذلك براتبٍ شهريٍّ لا يتجاوز ستون جنيهًا فقط، كان مبلغاً لا يعني شيئاً منذ اثنتي عشر سنة؛ لكني تعلَّمتُ الكثيرَ . لا أُنكرَ ذلك، علَّمني مستر شكري كيف أضع البذرة الأولى لرجلِ أعمال صغير، قسوته صَقَلَت فيَّ ذلك الإحساس المُوجَّه نحو المال والتجارة.

ارتكنتُ برأسي على مسند كرسي الطائرةِ الوثيرِ، حلّقتْ عيناي في سقفِ الطائرةِ وسرحُت طويلاً ..حتى جاء صوتٌ كالنغم، يقترب من أذني هامِسًا:

-هل تسمح لي بإحضار وسادةٍ لتضعها تحت رأسك؟

أهو نفس الصوت الذى كنت أسمعه من بداية الرحلة ؟

□□□ □□□□□1.indd 65 1/17/18 8:07 AM

نعم .. نفس اللكنةِ الانجليزيةِ الغريبةِ، إلتفتُ إليها وأخذتُ أتأمَّلُها عن قُربٍ زيَّ المضيفاتِ يَزيدُها أناقةً وجمالاً،

لأول مرةٍ تتكلَّم العينان، تتحدَّثان.. تتهامسان، لم أشعُرَ بهذا الإحساس مِنْ قبل .. ولكي أكون صادقًا، شعرتُ به أيام الجامعة مع جوانا، كان قلبي يدُقُّ كلما رآها، وتهيم العين لرؤيتها، ويعشقُ الأنف عِطرَها ومُحيَّاها، انتابتني ضحكة ساخرة "كانت أياماً يا فايز".. اختفت ملامح الابتسامة، واكتسب وجهي جديته من جديد ..

لأول مرةٍ أنتبه إلى صوتها الجميلِ، نعم صوتُها حالِمٌ خاصة بتلك اللكنة الغريبة، فليست إنجليزية ولا أمريكية، هي مزيجٌ غريبٌ لم أعهدْهُ من قبلِ .. لكنه مُثيرٌ مُحبَّبٌ للنَّفسِ، تُحب أن تسمعها تتحدَّث،

-وسادة؟

-نعم من فضلك..

إلتفتُّ إليها وهي تلتفت عائدة إلى كُرسّيها .. قوامها رائعٌ، لطالما لفتَ انتباهي طول المرأةِ، فهو سِرٌّ من أسرارِ جمالِها خاصةً إذا تزاوَجَ مع كعبٍ عالٍ وعينين واسعتين، زِيُّها الرسمي الضيق يبدو كأنما فستان سهرة...

تلك البدلة البيج مع الخطوط الحمراء تُخفي أكثر مما تُظهِرُ،

□□□ □□□□□1.indd 66 1/17/18 8:07 AM

ابتسامتها أخَّاذة تجمع بين سِحْرِ الشرقِ وعُنفوان الغربِ،

يالله...هذا التناسُق الساحر بين بشرتها وزيها يبدو كلوحة تشكيليةٍ تآبي الإ إن ترواد خيالك ، صرفتُ صورتَها عني بمعاودتي لقراءة الصحفِ من جديد، الأخبار مُمِلَّة، مُتشابهة، السوق تقفز وتهبط.

– سيدي: هل تُفضِّلُ البيكاتا بالمشروم[١] أو غراتان[٢]؟

كان لرنين لهجتها نَغَمٌ، فليست إنجليزيةً صرفة، فيها صِبغة فرنسية أو إسبانية .. لا أدري؟ لكن جرسها ممتعٌ لأنْ تستزيَد من كلامِها، فأحْببتُ أن أستمتع بحديثها أكثر..

–ألا يوجد لديكم إلا طعام فرنسي وإيطالي فقط؟

بالعكس سيدي ، هناك عدة وجباتٍ من مطاعمٍ مُختلفةٍ، هل تُحب أن تجربَ المطعم الصيني أم الهندي؟

– قاطعتُها بالفرنسية: ألا يوجد لديكم المطعم المصري؟

فتوردت وجنتاها، وارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ خَجِلة وهي تقول:

١–بيكاتا (Piccata) هو طبق إيطالي تقليدي يمكن أن يحضّر من الدجاج كما يمكن أن يحضّر من اللحم. تحتوي وصفة البيكاتا على لحم الستيك، الفطر، البصل، الثوم، لبنة، الزبدة ،صلصة الصويا، زيت الزيتون، فلفل وملح. .

٢–غراتان طبق فرنسي يتكون من البطاطس والحليب

□□□ □□□□□1.indd 67 1/17/18 8:07 AM

-لا بدَّ أنك مصري،

-نعم

-للأسف لا يوجد لدينا، لكني سأبلغهم في الإدارةِ بضرورةِ إضافة الطعام المصري إلى قائمة الطعام.

لم أتمالك نفسي وأنا أسألُها:

- هل أنتِ فرنسية الأصل؟

غمرتني بنظرةٍ شَائقة وقدْ اكتسى وجهُها بحُمرةِ الخجلِ، وقد جعلت غمزتاها وجهها كلوحةٍ فنيةٍ مليئةٍ بمعاني الفرحِ والسرورِ؛ ذَهَبتْ .. تأملتُ خطواتها وثوبها الرسميّ الذي يكشف عن استدارتها الساحرة، لخُطواتِها الجادة غنجٌ يُظهَر وإن حاولت إخفاءه وسَتْرَه بالجِدِّيَّة والمِهنيَّة، وخُصلةٌ من شعرها سارحةٍ كخيلٍ جامحٍ ...

عادت بعد لحظاتٍ تحمل صينيةً، يسبقها عِطرِها كالرذاذ الذي يسبق المطر...يغمرُني بمئاتٍ من الأسئلةِ،وضعت صينية الطعام على الطاولةِ، عَبَقُ عِطرِها يتسلَّلُ داخلي كأنما يْصفدُ قلبي بسلسلةٍ منتهاها هي، التقتْ عُيوننا من جديد، شعرتُ أنها اخْتَطفَتني من المكانِ والزمانِ، وكيف أقاوم تلك العينان الواسعتان ذواتا الحَوَرِ الخَلَّابِ، نظرتُها كشرارةٍ توقد اللَّهب...

□□□ □□□□□1.indd 68 1/17/18 8:07 AM

لأ أدري ما بي ...قلبي يموج بمشاعر مضطربة، نوع من المشاعرِ لا تستطيع تفسيره، شيءٌ ما يجذبني لأتعرفَ إليها أكثر، وضعت الطعامَ بدلالٍ وانْتَصَبتْ قامتُها، لأولَ مرةٍ إلى تناسق قوامها، سبحان من خلقك فسواك، مع كل خطوة كانت تبتعد ، كان قلبي اليها يحفد، يقترب،

و ذهبتْ هذه المرة كما سبق...

تأخرتْ قليلاً – أخذت أرواد نفسي أن أضغط على جهاز استدعاء المضيفة سأفعل أن تأخرت – وبالفعل تأخرت .. ولكني لم أفعل !

آثرتُ أن أغالب هذا الاحساس الطفوليّ، وجهت ناصيتي تجاه النافذة، وأغمضت عينيَّ، حاولت التفكير في أيِّ شيٍ آخر...

دقات قلبي تختلجُ مع دقاتِ كعبها العالي، مرَّت بجواري جامدة الملامح إلا من ابتسامة ألقتْها إليَّ خاطفةً، تلقفتُها بوقارٍ، وقد قررتُ صَرْفَ هذه المشاعر الصِّبيانية:

فتحت الكمبيوتر وأخذتُ أُراجِعُ الإيميلات، وكعادتي اندمجتُ في الأرقام، فغافلني رنين صوتها هامسةً ..

"[١]finissez-vous votre lunch"

رددْتُ.. عليها بتلقائيةٍ! Oui merci [٢]

١- هل إنتهيت من تناول غداءك ؟

٢- نعم ، شكرا لك

□□□ □□□□□1.indd 69 1/17/18 8:07 AM

لقد سألتني هذه المرة باللغة الفرنسية؛

انتابتني ابتسامة جذلة ... ذكيةٌ هذه المرأة، عرفَتْ كيف تُثيرُ انتباهي من جديد وأجابت عن سؤالي بطريقة غير مباشرة بأن أصولها فرنسية....

ولكن لحظة ملامحها لا تبدو كذلك؟!

هاتان العينان الواسعتان السوداوان المكتحلتان بذلك الكحل الأزرق الوهاج وخصلة الشعر الأسود اللامع، بها سَمْتٌ عربي واضح؟

مممم .. أثنيتُ نفسي عن التفكير، مُسترجِعًا ذكرياتي مع شيرين ونحن نتشارك الحياة، صخبها وسكينتها، أحسستُ بسخفِ ذلك الشعور وكيف أجرؤ أن التفت إلى غيرها ..

الرجاء من السادة إعادة المقاعد إلى وضعها الطبيعي، وإغلاق موائد الطعام، وربط الأحزمة استعداد للهبوط ..

وضعتُ جِهاز الكمبيوتر في الحقيبة، أعدتُ الكرسي إلى وضعه الطبيعي، ضبطتُ أغراضي استعدادًا لقُرب الهبوط .. لم يَطُلِ الوقتُ حتى هلَّت كالهلالِ في سماء صافية تتنقَّلُ بين الرُّكاب للاطمئنان أن المقاعد في مواضعها، وأن الأحزمة قد أُحْكِمَ ربطها، ما إن اقتربت مني حتى أعادت علي التنبيهات

□□□ □□□□□1.indd 70 1/17/18 8:07 AM

الرجاء إعادة الكرسي إلى موضعه الطبيعي، والتأكُّد من ربط حزام الأمان ...

ثم ألقت من بين أناملها ورقةٍ صغيرةٍ على الكرسيّ، وغادرت بكل بساطةٍ دونما أن يظهر عليها أي شيءٍ.

فتحتُ الورقة، وجدتُ عليها رقم هاتف، وبجوارها اسم صافي باللغة الإنجليزية، أومأتُ برأسي، وأنا مستمتعٌ بتلك الجرأة التي تزيدها فتنةً وسِحْرًا .. وأيقنتُ هذه المرة أن هناك شيئًا يَربِطُني بتلك المرأة، فليس من الطبيعي في كل مرة أن أنصرف عنها، أن تعود بشكل لا أتوقَّعه لتجذبني إليها أكثر وأكثر...

وقررتُ أن يكون أول عملٍ أقوم به عند وصولي إلى دبي هو أن أُحادِثَ صافي.

نزلتُ من الطائرة، ونظراتُنا يُشيِّعُ بعضُها بعضاً، وابتسامةٌ خفيةٌ نزجيها كرسائلِ الحمامِ الزاجلِ بأن هناك موعدًا بيننا لن نُخلِفَه، كانت مَلامِحُها جامدةً لا يظهر عليها شيءٌ، نفس الابتسامِة الروتينيةِ الرسميةِ التي تُودِّعُ بها كل الركاب وأنا منهم

بينما كنتُ أمنى نفسي بوداع مختلف ...

ركبتُ السيارة، وانهالت عليَّ الاتصالات والمواعيد

متى ستأتي؟ هل العقود جاهزة؟ سينتظرك جورج في الفندق ليوصلك إلى مَقرِّ الشركة ..

□□□ □□□□□1.indd 71 1/17/18 8:07 AM

اجتماعات ونقاشات وخلافات، انتهيتُ إلى الفندقِ وقد نالني النَّصبُ. أخذتُ حمامًا دافئًا ولبست بيجامة النومِ، وأسبلتُ جفوفي مُستعدّاً لنومٍ طويلٍ أرتاح فيه من عناء السفر والاجتماعات ،لكن شيئًا ما يقضُّ مَضجعي،

يُراوِدُ النوم عينيَّ، التحفت الوسادةَ فوق رأسي مُسبلاً، تزاحمت عليَّ الخيالات ما أجمل اسمها، أسم على مسمى كأنه حورية من الجنبة هاهي تبتسم وما أن امعن النظر في عيناها حتى تكسو الحمرةَ خدَّيها ...

نهضت من فراشي والشغف يحدوني .. لإن أحدثها، أخذتُ أبحثُ في أوراقي عن تِلك الورقة تلك التعويذة التى تحتوى بضعة أرقام هي الخط الذى يصل بيننا ..

اخدت أصابعي تتسارع لتطلب الرَّقم، لم يهملني الشَّغفُ فُرصةً للتفكير، يسوقني سوقًا للاتصال بها،

أووف، الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل...

أغلقت الاتصال بسرعةٍ، وانسحبتُ داخل الغطاء لاعناً ذلك الحُمْقَ الذي اعتراني في هذه السِّنّ...

أتكون مُراهَقَةٌ متأخرة! ماذا عن شيرين والأولاد !

أترانى نسيتها وهي التى وقفت جواريّ، و لها الفضل فيما أنا فيه الأن لم أكن لأصبح رجل أعمال مرموق دون تضحياتها المتصلة،

□□□ □□□□□1.indd 72 1/17/18 8:07 AM

دون تدبيرها ودعمها المتواصل، كل ذلك تبخر في الهواء أم فتنه صافي ... أفٍّ لشيطان النفس عندما يتمكَّن منَّا!

فايز .. اصرف نفسك عن ذلك، فلا أنت بالمراهقِ ولا بصغيرِ السِّنِّ والمكانة، استقرار أُسرتك وحياتِك أشدُّ أهميةً، فلتعُدْ لرُشدِكَ، ولتصرَّفْ تلك الخواطر عن ذهنِك، فما حدث ما هو إلا نزوة وانتهت.

كان ضميري يُخاطِبُ عقلانيتي .. ولا غَرْوَ أن أصابَ كلامه قناعتي، وضعتُ الهاتف بجواري، وأسدلتُ الغِطاء عليَّ وهممْت بالنوم، وفجأة تلألأت الغُرفة بين صُبْحٍ وليلٍ...

تأملت ساعة الهاتف قبل أن اضع الهاتف على إذني متململاً ، الرقم غريب لا أعرفه من يتجرأ ويتصل بي في هذا الوقت المتأخر إنها الرابعة صباحًا. وتناولت الهاتف في ترقُّبٍ وحَذَرٍ

-يبدو أني أيقظتُكَ من نومِك؟

- رددت بضجر .. مَن معي؟

-هل استطعتَ أن تنسى صوتي بتلك السرعة؟

-ممم.. أنتِ .. أنتِ صافي؟ كيف لي أن أنسى تلك اللكنة الإنجليزية المشوبة بفرنسيةٍ فوَّاحةٍ؟

خاطبتُها بالفرنسية .. فرنسيتك تضيف لكِ أنوثةً أكبر.

□□□ □□□□□1.indd 73 1/17/18 8:07 AM

-ولهجتك المصرية تبُهرني؟

قهقهتُ بصوتٍ عالٍ قائلاً:

-هذه دُعابة في غير مكانِها ..

-فأجابت بالعربية: كيف!؟

-ماذا!! أنتِ تتحدَّثين العربية؟ أنت .... من؟

تعاقَبَ الحوار بيننا حتى قرَّرنا أن نتقابل دون إبطاءٍ، فلم نمهل أنفسنا إلا سُويعاتٍ قليلةَ عتَّقنا فيها الشوق في صدرينا؛

تقابلنا في مطعمٍ مُميَّزٍ، تبادلنا الحديث، كنا كطفلين تعلَّما الحديث للتوِّ، ثرثارين نتحدثُ معًا ونصمتُ معًا، يفصل حديثَنا مِساحةٌ هاربةٌ من الزمن فيها تحدثت الأحداقُ وصمتَ الكلام، رأيت في صافي هَدية اللّهِ إليَّ، بعد سنواتٍ من الكدِّ والجهد والتعب، كانت نظراتها تُفجِّرُ البراكين الكامنة، وتُلهِبُ القلب بمشاعرٍ لم أعشها منذ سنواتٍ عجافٍ،

كانت صورتها تُخايلني .. يطاردُني صوتها، ابتسامتها، حورُ عينيها، لم يطل الأمُر حتى قررنا أن نلتقي غدًا صباحًا في فندقي.

من الصعب إزاحة ملامحها عن خيالي، أمضيتُ ليلتي هانئًا بجَوَلان خيالي في مَلاَحة "صافي" وظُرفها، كلما أشارتْ أو التفتتْ بعينيها الفياضتين بالأنوثةِ؛

□□□ □□□□□1.indd 74 1/17/18 8:07 AM

من أين أتت بتلك الالتفاتة الفاتنة! ومن أين لها تلك الليونة البادية من نبرات صوتها ومن حركة أصابعها السَّكْرى! ومن أين لها هذه الفتنة الفوَّاحة!

نمتُ، مُلامِسًا لها بخيالي، ولم أستطع النوم، كلمتُها منذ وصلت إلى الصباح عشر مرات .. وأنا بين الشوق والجذل كان صوتها حنونًا، هامِسًا، وضحكاتُها عابثةً مجنونةً، كانت امرأة بها كل شيءٍ: الجمال والجسد والثقافة والملاحة،

أنها امرأة من الجنة،

وراح خيالي يأخذني إلى حلم بأني دعوتُها إلى غُرفتي فأدفأتْ حياتي كما أدفأت سريري، وتمنَّيت أن تجعلني رجلاً في عالم آخرٍ بفنونٍ فِراشيةٍ ساحرةٍ، كأنني طِفْلٌ يحبو بين يديها، كانت تُلهبني بنظراتها وحركاتها، وهبتني ليلة تاريخية أتاحت لي حدودها، وجعلت نفسها في تاريخي ملكة لا يُنازِعُها أحدٌ،

شَهيَّةً لا يُمَلُّ أكلُها، كل لحظة بطعمٍ جديدٍ، تركتْ آثارَها على كل أنحائي كأنها تُوقِّعُ صكَّ مِلكيَّةٍ باسمِها، كنتُ مُشتهاها في الذهابِ والإيابِ، أوااه من طقوسها التى تزواج بين الدلالِ والمجونِ، علقتني بها...

وجدتُ نفسي مُنجذِبًا إليها دون هوادةٍ، ضممتُها إلى ذراعيَّ وهمستُ في أذنها:

-لا أستطيعُ الحياة من دونكِ، هل ترضين بي زوجاً؟

□□□ □□□□□1.indd 75 1/17/18 8:07 AM

تلألأت الفرحةُ في عينيها، وعَمَّ الصمتُ .. لتسألني:

- أجادٌّ أنتَ ؟

فأجبتُ:

-لم أكن جادًّا في حياتي كما أنا معكِ؛

قفزتْ من الفِراش ترقصُ وتُغني وتصرخُ، وأخذت تحتضني، وتقفزُ بي على السرير إلى أعلى .. أعلى .. أعلى ثم ارتمينا على الفِراش في جنةٍ فِردوسيةٍ ليس فيها إلا أنا وهي.

وعلى الفور كلمتها فيما راودني .. وكان من نغم الفرحة في صوتها.. ماجسد كل ماتخيلتهُ

لم أرَ في ذلك جوراً على شيرين ولا على حقوقها، فقد أحلَّ اللّٰهُ ليَّ الزواج "مَثْنَى وثُلاث ورُباع"، ولا أظنُّ أن أحداً قادراً على مُنازعة شيرين مكانتها، ولكن قلبي وقع في الأسرِ ولا حِيلةَ لي ولا قوة، قررتُ أن أُرجئَ التفكير في ذلك إلى وقت آخر.

ليس حفلاً كبيراً .. وإنما نسعد بأن نتشاركه معكم، نعم، نعم، بعد نصف ساعةٍ من الآن؛

تجهزت صافي بفستان سواريه صارخ الجمال، سماوي بلون السَّحاب، ولبست بدلة تكسيدو بيضاء مع ببيون سماوي، وجلسنا

□□□ □□□□□1.indd 76 1/17/18 8:07 AM

في قاعة الفندق، وقد جلس المأذون على اليمين ومدير الفندق وبعض الموظفين على اليسار، و ثُلةٌ من النُّزلاء الذين استجابوا للوحةٍ علَّقتها إدارة الفندقِ على المدخل بطلب الحضور ..

دقائق صغيرة لكنها كانت فاصلة في حياتي، نسيتُ فيها تاريخي السابق، نسيتُ شيرين وأولادي، نسيتُ عُمرًا من الكفاح، نسيتُ تاريخًا صنعناه معًا، كانت فيه السَّندُ والعُزوة، نسيتُ كل شيءٍ إلا صافي، وصافي فقط ؛

حملتُها بين ذراعي إلى جناحٍ ملكيٍّ، منحتني إدارةُ الفندق تخفيضًا خاصًّا عليه.. وهناك تحوَّلَ الليلُ إلى نهارٍ .. رَقَصْنا وشَرِبْنا وغَنَّينا ولَعِبْنا .. كان يومًا حافِلاً من أيام ألف ليلة وليلة.

كانت صافي الزمن والتاريخ، كل شيء بجوارها يتضاءلُ لتصبح البطولةُ لها، معها أشعرُ أني في مَلكوتٍ آخر، بهرني نَشاطُها وانطلاقُها وشَغفُها بالحياةِ، لا تريد أن تمُرَّ لحظةٌ واحدةٌ مُرورَ الكِرامِ، ركضْنا ولَعِبْنا حتى نالنا النَّصبُ والجهد، كان يوماً حافِلاً؛

□□□ □□□□□1.indd 77 1/17/18 8:07 AM

تسلَّلت أشعةُ الشمسِ من خلف النافذةِ على استحياءٍ، تُرهِبُها ستارةٌ ثقيلةٌ تمنعُ نفاذ الضوء إلا من فجوةٍ نسينا سترَها أمس، لتكون لوحةًرائعةً من الظلالِ، تتمازَجُ بين دفء الشمسِ وبرودة التكييف، تلفَّتُّ حولي .. لم أجدْ فاتنتي، أخذتُ أُنادي عليها ... صافي ... يا جميلتي .. زوجتي الحبيبة.

الأغلب أنها خرجت، يا للعجب! هذه الفتاة نشيطة بشكل غير عاديٍّ، يبدو أن فارق السِّنِّ لصالحها يا فايز، هههههه،

ابتسمتُ وأنا أشذِّبُ ذقني في مِرآة الحمَّام، الفارق لا يتعدى خمس أو ست سنوات، لكنك ما زلت تتمتَّع بجاذبيتك الرائعة. ما مُفاجأتُها هذه المرة!؟

انتهيتُ من الحمام، ولبستُ ملابسي وأنا أستطلع شيئًا قد يكشِفُ سِرَّ اختفائها المُبكِّر، تقطعني ابتسامة شائقة، عندما أتذكَّرها وهي ترقص فوق السرير بهذا الشورت الساخن هههههه – مجنونه فتاتي –

أها .. مُغلَّفٌ بلونٍ احمريفوح بعطرها، أخذتُ أتنسَّمُه "ريتشي" عِطرُ الأُنوثة الأَخَّاذ، أاااه مِنك يا صافي!

أخذتُ المغلف، ورميتُ نفسي على كرسي هزَّازٍ، وقد أسلمتُ قلبي لحروفها، وكلي شَغَفٌ لاكتشاف مُفاجأتها القادمة، كتبتْ بالإنجليزية:

□□□ □□□□□1.indd 78 1/17/18 8:07 AM

"حبيبي فايز ... كانت أيامًا ليس لها مثيل، أستطيع أن أجزم أنني لم أشعرْ بسعادةٍ كما سعدتُ معك هذين اليومين، أعتذرُ عن اضطراري للمُغادرةِ فلديَّ طائرةٌ ستُقْلِعُ إلى واشنطن في الصباح. تركتُ لك ورقة الزواج لتبقى ذِكرى بيننا...

.. مع تحياتي وحُبِّي"

صافي

□□□ □□□□□1.indd 79 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 80 1/17/18 8:07 AM

امنية حرون

ها هي الانفراجةُ قد حانتْ، فأضواءُ الشمسِ تلْمعُ على قارعة الطريق في إشارة إلى الطريق العمومي الذي يحدُ نهاية السوقِ، بضع خطوات وتخرج من السوق ومن هناك تأخذ أي وسيلة مواصلات تصل بها إلى منزلها، لكن لحظة اقترابها من نهاية السوق سمعت أصواتاً وصراخاً, واندفعت على إثرها أرتالٌ من البشرِ من باب أحد المحلات، وإحدى السيدات تُمسكُ بالأخرى..

□□□ □□□□□1.indd 81 1/17/18 8:07 AM

"لا واللّهِ يا خويا معْرفش.. اسأل أم سوسن على الناصية اللي جاية، أيوه.. اللي بتبيع الخضرة على أول السوق"...

ردَّتْ "أم توحة" على السائلِ وهي تخطو أولَى خطواتِها داخلَ سوقِ السباعي، ذلك السوق الجامع، الذي يُعتبرُ مركزاً لبيعِ منتجاتِ القرى المجاورة حيث يتوافدُ عليه الفلاحون من كلِّ صَوبٍ وحدبٍ، كلٌّ ببضاعته، فسوقُ السباعي ليس مجرَّدَ سوقٍ

ولكنه عالمٌ آخر..!

هناك حيث يَجتمِعُ أكبرُ عددٍ من البائعين والمشترين والمتفرِّجين في كلِّ يومِ جمعةٍ، ويتوافدُ عليه الفلاحون مزودين بإنتاجاتِهم المنزلية؛

ما بين زُبدٍ وقِشدةٍ ولبنٍ بقريٍّ وجاموسيٍّ.. هذا غير "العيش" البلديّ و"المرحرح"[1] والبيتّاوي[2] وأنواع الجبن القديمة والقريش والبيض البلدي والفطير المشلتت.. والطيورِ بأنواعِها ما بين بطٍ و إوَزٍّ وسمانٍ وحمامٍ وكتاكيتَ، في خليطٍ متجانسٍ، رغم تنوعِه، وزخمٍ يصنعُ تفاصيلَهُ صيحاتُ البائعين و"فصالُ"[3] المشترين.. يتخلّله بعضُ السِّبَابِ والشتائمِ في حالٍ لم يقتنعْ المشتري بالسعرِ، أو نَقِمَ البائعُ على مشترٍ أكثرَ عليه "الفصالَ" وتقليبَ البضاعةِ لانتقاءِ الأفضلِ منها.

١-نوع من أنواع الخبز البلدي المصري.

٢-نوع من أنواع الخبز البلدي المصري.

٣-لفظ يقصد به التفاوض مع البائع.

□□□ □□□□□1.indd 82 1/17/18 8:07 AM

في وسطِ ذلك كانت أمُّ توحة تحملُ على رأسِها مشنةً[1] فيها "دكر بط" وهي في حالة من النشوة والفرح بأن الزفر[2] أخيرا سيدخل البيت، وتتمكن من عمل شوربة بمرقة "ترمّ عظم" أبو توحة.

أخذتْ أم توحة تشقُّ السوقَ عائدةً إلى منزلِها حاملةً على رأسِها المشنةَودكرَ البطِّ شامخاًبرأسِهِ كأنَّه يتباهىَ برؤيةِ الجميعِ من أعلَى في فرصةٍ لم تُتَحْ له من قبلُ، وبينما أم توحة تتأمّلُ بنظراتِها المُتمعِّنةِ البضائعَ المنتشرةَ في السوقِ وهي تارةً تُمنّي نفسَها بشراءِ غسّالةٍ ترحمها من طشت الغسيل على أمل أن يُفرِّجَها اللّهُ على "أبو توحة"، وتارةً تصبُّ نقمتَها على البضائعِ الأخرى في محاولةٍ لإرضاءِ نفسِها بأنَّ شراءَ تلك البضائعِ نوعٌ من أنواعِ البذخِ الذي لا يَرْضَى عنه أحدٌ

فما الغايةُ من مروحةٍ بريموت كنترول إلا محاولاتٌ دائبةٌ من البائعين بالضحك على الناسِ لتحقيقِ أرباحٍ أكثرَ بتشجيعِهم على الشراءِ بدافعِ البذخِ والبهرجة!

وفي غَمْرةِ نظراتِها ما بين تمنٍّ ونقمةٍ باغتَها شخصٌ يرتدي "جلابية وطاقية" استوقفَها متسائلا:

– إلا بكام الدكر ده؟

١– قفص من أعواد القصب.

٢– الطعام الذي يحتوي على لحم (طيور – ماشية)

□□□ □□□□□1.indd 83 1/17/18 8:07 AM

توقفت أم توحة وأجابتْه :

سبعين جنيه وعلشان الحلفان اتنين وسبعين .. فيه اثنين جنيه لزوم الكُسْب والدرة..

مصمص الرجلُ شفتيْه ونظرَإليها من أعلى إلى أسفلَ ثم إنطلقَ لا يَلْوِي على شيءٍ دونَ أن ينطقَ ببنتِ شَفَة، عبَّرتْ أم توحة عن استنكارِها من الرجلِ برفْعِ حاجبِها بحركةٍ فجائيةٍ ثم ما لبِثَ أن استكانَ لوضعِهِ الطبيعيِّ مُطْلِقةً صيحةَ استنكارٍ..

-"ألّا من إيه ده.. ربنا يشفي!"

أطلقتْ العنانَ لقدميها في طريقِ العودةِ، ولم تمْضِ دقائقُ قليلةٌ حتى سمعَتْ صوتاً من الأعلى يُنادِي:

-"ياللي شايلة دكر البط، إنت يا ختى اللي معاكي دكر البط.."

توقفتْ أم توحة وحاولتْ النظرَ إلى أعلَى بزاوية محدودة لتجد امرأة تقف في بلكونة عُلْوية ونصفُ جسمِها متدلٍّ فوقَ السُّور.

- "صباحك نادي، إلا بكام الدكر ده ياختي؟"

أم توحة: سبعين جنيه و اثنين جنيه لزوم الكُسب والدرة.

وما إن همَّتْ أم توحة إلى التحرِّكِ

حتى استوقفتْها المرأةُ مرةً ثانيةً:

□□□ □□□□□1.indd 84 1/17/18 8:07 AM

- "يا ختى هو أنت متسربعة على إيه!"

- "والدكر ده بقا بلدي ولا مسكوفي؟"

فقالت: مسكوفي.. ولا مؤاخذة ياختي لازم أمشي.

همَّتْ المرأةُ أن تجذبَها إلى مرّةً أخرى ولكنَّ سرعةَ هِمَّةِ أمِّ توحة في الحركة جعلتْها تصيحُ:

- "ربنا يباركلك ياختي بس شكله غالي حبتين.."

"وبعدين انت متسربعة كده ليه.. أنت وراكي الوزارة ياخت!"

مصمصت أم توحة شفتيها مسرعةً خُطاها إلى البيت، وما إنْ غادرتْ نطاقَ بلكونةِ المرأةِ حتى لمحتْ ابتسامةَ رجلٍ عجوزٍ يركبُ دراجةً بصندوقٍ حديديٍّ حاملاً فوقَ رأسِهِ قفصاً من الخوصِ يضع عليه بضعَةَ أرغفةٍ من الخبزِ، يبتسمُ لها من بعيدٍ، تمتمت أم توحة:

- "هو النهاردة ما له كده!"

وأشاحتْ بوجهِها للناحيةِ المقابلةِ، لم تَمْضِ سوى لحظاتٍ قليلةٍ حتى إقترب الرجلُ منها وأوقفَ دراجتَه وقال مبتسماً :

- فينك يا أم توحة.. مختفية ليه؟

- "الدنيا تلاهي، وأنت رايح فين كده؟"

□□□ □□□□□1.indd 85 1/17/18 8:07 AM

- "طالع على الورشة كنت باجيب عيش للفطار، إلا بكام دكر البط ده؟"

- "سبعين جنيه وعلشان الحلفان اتنين وسبعين .. فيه اثنين جنيه لزوم الكُسب والدرة!"

- "عَليَّ يا أم توحة.. طيب بأمانة الله بكام؟"

- "والله بسبعين جنيه وعلشان الحلفان فيه اتنين جنيه.. لزوم الكسب والدرة ."

بدا الضيقُ على وجهِ الرجلِ والتفت اليها بحدة:

- بقولك بأمانة اللّه.. طيب وحياة سيدك المرزوقي بكام؟

قاطعته أم توحة قائلة:

- لا إلهَ إلا اللّه! حلفتلك باللّه تقولي سيدي المرزوقي؟!

وكتاب اللّه وكتاب اللّه اللي مفيش أغلى منه بـ بسبعين جنيه وإتنين جنيه لزوم الكُسب والدرة، وبعدين هو أنا هاكدب عليك ليه؟

روح يا شيخ فورت دمي!

ثم ضبطتْ المشنة فوق رأسِها وانطلقتْ وهي تسُبُّ وتلعن، مُأنِّبَةً نفسَها إنها استجابتْ ووقفتْ لهذا الرجلِ وهي تعرف مقدَّمًا أن هذا سيحدث.

□□□ □□□□□1.indd 86 1/17/18 8:07 AM

واصلتْ سيرَها وهي تتخيَّلُ كيف سيكونُ ردُّ فِعْلِ "أبوتوحة" عندما يشاهد دكر البط، وكيف سترسِمُ ابتسامةً جميلةً على وجهِهِ بعدَ شُهورٍ عجاف، لم يدخلِ البيتَ فيها ريحة الزفر

وكيف استطاعتْ أن تقتصِدَ من نفقاتِ البيتِ لتُوفِّرَ ثمنَ الدكر، كانت تشعُرُ بنشوةٍ عارمةٍ بأنها ست بيت من الدرجة الأولى، وأغلبُ ظنِّها أنهم لو عملوا مسابقة في التدبير المنزلي على مستوى العالم ستكون الأولى بلا منازع.

"أصل الناس بتوع المسابقات دول بيتكلموا في الهوا، ما عاشوش الحياة الصعبة ولا عرفوا قيمة القرش، أما الناس اللي اتمرمطت فتعرف إن القرش ليه قيمة.. والقرش الأبيض ينفعك في يومك الأسود.."

وأمُّ توحة صاحبةُ نظريةِ "الربع جنيه المخفي"؛

فعندما تريد أن تشتريَ أيَّ شيء لابد أن تَنْتقصَ منه ربع جنيه وأن تتحايل لتدبيرِ احتياجاتِها بالمبلغِ بعد "خنصرة"[1] الربع جنيه بإخفائه في مكان ما، وقد نجحتْ هذه الطريقةُ تماما، في توفير اثنين وسبعين جنيها كاملة.

علت ابتسامةُ الثقةِ شفتَيْ أمِّ توحة حتى داهمَها صوتُ سيدةٍ تجلسُ على قارعةِ الطريق في السوقِ وأمامَها طاسةٌ وبجوارها قطعٌ من الباذنجان والفلفل الرومي،

١- اقتصاص جزء من المبلغ.

□□□ □□□□□1.indd 87 1/17/18 8:07 AM

- السلامُ عليكم..

-وعليكم السلام..

- جاية منين يا شابة؟

-كنت في السوق يا حاجة، أي خدمة؟

قطعَ كلامَ أمٍّ توحة ولدٌ صغيرٌ يتقدمُ للعجوز،

-الأسطى بيقولك: بنص جنيه باذنجان وشوية فلفل حار..

قبضتْ العجوزُ النقودَ من يدِ الطفلِ ووضعتْها في كيس قماش أسود يعلوه شريطٌ من المطاط بين قدميها ثم أشارت إلى الولد:

-شوية وتعال..

ثم التفتتْ إلى أم توحة وهي تسقط قطع الباذنجان في الزيت وتتحدث إليها دون أن ترفع رأسها،

- بذمتك ودينك بكام دكر البط ده؟

التفت إليها أم توحة بشيء من بقايا الصبر..

- بذمتى ودينى.. بسبعين جنيه واثنين جنيه لزوم الكُسب والدرة..

التفت إليها المرأة العجوز بحدة وقالت: ده أنا زممتك يا شابة..

□□□ □□□□□1.indd 88 1/17/18 8:07 AM

– من الآخر كده بكام؟ وبعدين ده مسكوفي ولا شرشابي؟[1]

ردت أم توحة: مسكوفي يا حاجة وأنا شارياه كده!

أشاحتْ العجوزُ بوجهِها تجاه الطاسة وهي تقول:

لا .. بس اتغلبتِ فيه يا شابة هو فيه دكر بط بالسعر ده!

أم توحة وقد نفذ صبرها:

– القسمة يا حاجة.. ولا مؤاخذة أنا ماشية!

أخذتْ أم توحة تتنفَّسُ الصعداءَ وهي تنفُخُ عناءَ النقاشِ مع العجوزِ بتنهيدةٍ كبيرةٍ مُحَدِّثةً نفسها:

هي الكعكة في إيد اليتيم عجبة ولا إيه!

وأخذتْ تُسْرِعُ من خطواتِها أكثرَ، وما إن بدأتْ تبتعدُ قليلاً عن السيدةِ حتى لحِقَها ولدٌ صغيرٌ ينادي:

يا بتاعة البط، بابتاعة البط.. الحجة بتقولك تبيعي؟

واخذت أم توحة تضرب كفاً بكف وهي تكلم نفسها:

شوفوا الست بتعمل إيه! يعني بتفطّس السعر علشان تشتري هي في الآخر..!

١– من أنواع البط.

□□□ □□□□□1.indd 89 1/17/18 8:07 AM

وفجأة اختلَّ توزانُ أم توحة فسقطتْ المشنةُ على الأرضِ وطار دكر البط بعد أن اصطدمتْ بولدٍ صغيرٍ يركُض باندفاعٍ.

انخلعَ قلبُ أم توحة وهي ترى دكر البط يرفرفُ بعيدًا عن مشنتِها، وأخذتْ تركضُ وراءَه في محاولةٍ منها لملاحقتِه، تفاعل معها بعض رواد السوق، فقاموا بعمل دائرةٍ لمحاصرةِ دكر البط، وهمّ بعضُ الشبابِ الصغارِ بالهجومِ عليه..

والدكر يحاول الاختباءَ بينِ كراكيبِ السوق المتناثرة، وتعالت الصيحاتُ

"أهو حلق عليه..

حوش ..

حوش ..

أيوه هناك ..

حتى قفز أحد الشباب وأمسك بإحدى قدميه ..."

كانت أم توحة تطالعُ تلكَ المحاولاتِ وقلبُها ينتفضُ مع كلِّ حركةٍ تهمُّ بإمساكِ الدكر، لم يكن مجردَّ زفر فحسب

كان أمنيةً حرون

لطالما راودتْ صاحبتَها، وتأبَى أن تخضعَ للإرادة، وكأنما تحوَّلَ الدكر في هذه اللحظة إلى مجموعةٍ من الأحلامِ المكبوتةِ تحتَ بابِ الانتظارِ

□□□ □□□□□1.indd 90 1/17/18 8:07 AM

أصبحَ دكر البط في عينيِّ أم توحة مسيرةَ حلمٍ تخاطبُ بها نفسَها كلَّ يوم، مسيرةٌ من الاجتهادِ والتدبيرِ لتحقيقِ جزءٍ صغيرٍ من حلمِها، ها هو حلمُها يقفز من يدٍ إلى يدٍ في محاولاتٍ حثيثةٍ للإمساكِ به، لم يكن قلبُ أم توحة فقط الذي ينتفض..

بل كانت هي بكل حواسِّها تنتفضُ مع تلك المحاولاتِ، والدكر يراوغُ هذا ويخادعُ ذاك، حتى آن لذلك الصبي الصغير أن يمسكه بعد أن ضاقت به السبلُ عن الفرارِ والمراوغةِ

ركضتْ أم توحة لتحتضِنَ الدكر بشكل عشوائيٍّ وتتحسسُه لاكتشافِ أيِّ جروحٍ أصابتْهُ، ووضعتْه بسرعةٍ فوق المشنة، وقد قرَّرتْ مغادرةَ السوقِ على وجهِ السرعة.

وانطلقتْ تسابقُ الخُطَى لتخرجَ من هذا السوقِ الذي تسببّ لها في الكثيرِ من الحَنَقِ والغضبِ مهدِّدًا إياها بضياعِ أمنيَّتِها في لمحةِ عين.

ها هي الانفراجةُ قد حانتْ

فأضواءُ الشمسِ تلْمعُ على قارعة الطريق في إشارة إلى الطريق العمومي الذي يحدُ نهاية السوقِ، بضع خطوات وتخرج من السوق و من هناك تأخذ أي وسيلة مواصلات تصل بها إلى منزلها

لكن لحظة اقترابها من نهاية السوق سمعت أصواتاً وصراخاً، واندفعت على إثرها أرتالٌ من البشرِ من باب أحد المحلات، وإحدى السيدات تُمسكُ بالأخرى..

□□□ □□□□□1.indd 91 1/17/18 8:07 AM

- لا أنت اللي بدأتِ..

- يا لهوووووووي، الحقوني يا ناس..

وانطلق الناسُ من كل حدبٍ ينسلون، وفجأة اجتمع رواد السوقِ على هذه الكوكبة الصغيرة من النساء وقد أصبح صراخُهم أعلى من "سرينة" الإسعافِ التي تَشُقَ الطريقِ، بعد أن سالت دماء أحدهم والصراخُ يزيد..

- "حد معاه قطن.."

- "سبرتو ياجماعة"

حد اتصل بالإسعاف ولا لسه؟

يا ناس دمها هيتصفّى..

وجدت أم توحة نفسها وسط المشاجرة، وأخذت تتلفتُ يمنة ويسرة محاولةً الهروب أو الاختباء على أقل تقديرٍ، فالجري "نصف الجدعنة" في هذه المواقف..

لكن الزحام لم يتح لها هذه الامنية.

فراحت تجتهدُ في الاختباء، هرباً من أن تُصِيبَها إحدى المصائبِ، حتى وجدت نفسها في محل خردوات فحمدت الله

□□□ □□□□□1.indd 92 1/17/18 8:07 AM

بعد مرورِ بعض الوقتِ والترقبِ، قررت أم توحة أن تخرجَ وتقتحمُ الخناقة بأي شكلٍ من الأشكالِ، فالبوادر أمامها تُظهرُ أن الموضوعَ سيطول ولا طاقة لها بالانتظارِ أكثر، بعد فترة من التردد قررت أم توحة الخروج سريعاً؛

فحزمت أمرها وسارت بخطى مترددة وهي تُمسكُ المشنةَ بإحدى يديها والأخرى تفتحُ لها طريقاً بين مشاهدي الخناقة.

ها هي تتجاوزُ الجموعَ، حتى وصلت إلى خارجِ السوقِ.

تنفّست الصعداءِ

وأنزلت المشنةَ لتريحَ رأسها من ثقلها، في انتظارِ مرورِ سيارةٌ، للوصولِ إلى البيت.

فجأة اكتشفت أن هناك شيئاً ما قد فقدته أثناء الخناقة.

"دكر البط"..!

□□□ □□□□□1.indd 93 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 94 1/17/18 8:07 AM

كل موقفٍ تتخذه يا صديقي تصنع به تاريخاً، حتى سكونك وإمعانك في الصمتِ هو صناعة لتاريخٍ اخترتَ فيه العزلة والسلبية وسطْرت سطراً من الإحْجام والانكماش على ذلك, لذلك أنتَ موكَلٌ لِما تفعله، ولا تدعُ التاريخ يمرُ دون أن تترك بصْمتك عليه، ولا تَرّكنُ للبصمات السلبية، بل اترك بصمةً تجعلُ الجميع يتحدث عنها.

□□□ □□□□□1.indd 95 1/17/18 8:07 AM

كل موقفٍ تتخذه يا صديقي تصنع به تاريخاً، حتى سكونك وإمعانك في الصمتِ هو صناعة لتاريخٍ اخترتَ فيه العزلة والسلبية وسطّرت سطراً من الإحْجام والانكماش على ذلك

لذلك أنتَ موكَلٌ لِما تفعله، فلا تدعُ التاريخ يمرُ دون أن تترك بصْمتك عليه، ولا تَرّكنُ للبصمات السلبية

بل اترك بصمةً تجعلُ الجميع يتحدث عنها.

ما أن انتهى المحاضر من خطبته العصماء حتى صفّق الجمهور ووقف الجميع احتفاءً به، أغلقتُ التلفاز وكلمات الدكتور ترنُ في أُذني ..

-هل مر عليك يومٌ صنعتَ فيه التاريخ يا سامح ؟

بالتأكيد صنعت التاريخ كثيراً ..

وقفتُ في منتصف الغرفةِ وقد فردت ذراعيَّ على امتدادهِم وصحتُ بصوتٍ مرتفعٍ:

كم مرة صنعتُ التاريخَ يا سامح ..

حتى جاءنى صوت زوجتى ..

-صنعته بصمتك وترددك خلينا ساكتين يا سامح بقا.

هكذا هي زوجتى دائماً ما تُثبّطُ عزيمتي، لم يعدْ لي في هذا البيت إلا ابنتي حبيبتي،

□□□ □□□□□1.indd 96 1/17/18 8:07 AM

البِنتُ دِفءٌ وحنانٌ ودلالٌ وتسريةٌ، هذا ما أَشْعرُ به كل لحظةٍ وابنتي تتحرَّك في المنزل كفراشةٍ برِّيَّةٍ تُشاكِسُ كل شيءٍ، لا تَرْكنُ إلى السكون، تعاند الصمت بالمشاغبة، وتبثُّ الحياة في المنزل بالحِراك

تتقافزُ على الأثاث لتكتشف كل شيءٍ بصبغتها، ثم ما تلبث أناملها أن تصعدَ على رقبتي لتقرصني قرصاتٍ مُتتاليةً، ثم تنعكش شعري ما إن أزيحها حتى تتسلقَ ظهري منتوية الغدر

تلافيتُ سقْطتها على الأرض بأن حملتها على الطاولةِ وتركتها لتستكين .. ولكن بخفة الغُزْلان هبطت وتبعتني وهي تركضُ ورائي

-بابا .. بابا ..

فالتفت إليها:

-نعم

كل أصدقائي يتعجبون من اسمي، ويسألون عن معناه، فلا أعلم بماذا أردُّ عليهم، فما معنى الاسم؟ ولماذا هذا الاسم بالّذات؟

احتضنت ابنتي الجميلة ..وأنا أُداعبُ شعرها بأناملي، أما عن معنى اسمك فهو وجه القمر باللغة الأثيوبية

تلألأ وجه ابنتى وهي تقول وهل للقمر وجه !؟

□□□ □□□□□1.indd 97 1/17/18 8:07 AM

إن لذلك قصةً طويلةً .. في هذه القصة يا حبيبتي صنعت أنا التاريخ ثم خفضت صوتي قليلاً ...

-أنا وأمك،

ردّت ابنتي بعينين ملؤهما الشَّغفُ والمُشاكسةُ:

-أي تاريخ؟

ألمْ تسمعي المحاضرمنذ قليل وهو يقول:

لا تدع التاريخ يمرُّ دون بصمتك .. اسمك كان أحد البصمات التى سأتركها تتحدث عني، ولها قصةٌ جميلة ...

-احكيها لي ...

-حسنًا سأحكيها

بدأتْ القصة منذ عشر سنواتٍ هي عمرك الغَضُّ، في يومٍ من الأيام التي اقترب فيها بزوغ نجمك على الدنيا، كانت السّاعة الحادية عشر ليلاً، وكنتُ بصحبة أمك نتجاذبُ السَّمَر في بيت جَدِّك، وما إن انتوينا الرجوع للمنزل حتى انهالت عليَّ النصائح كأني مُقْبِلٌ على صعود جبل عرفات، فأخذ كل فردٍ من العائلة يدلي بدلوه:

-"خلي بالك منها يا سامح".

- "أوعى تهمل فيها ما تخليهاش تطلع السلم بالراحة عليها".

□□□ □□□□□1.indd 98 1/17/18 8:07 AM

-"اخدم نفسك بنفسك، البنت مش مستحمله، لو فيه أي حاجة اتصل علينا .. اليومين دول يومينها خليك واعي كده .."

-حاضر يا حماتي .. حاضر يا حماي .. حاضر يا ليلى .. حاضر يا أحمد .. عينيا .. " إن شاء الله خير .. مش نمشي بقا؟!"

خرجتُ من باب الشقة تلاحقني زَفَّة من النصائح إلى الباب الرئيسي.

ما إن تجاوزت ناهد الشهر التاسع بيوم واحد ونحن نعيش حالة استنفار مترقّبين صيحة وجع تُفسَّر بأنها اشتباهٌ في "طَلْق" فأُجهِّزُ سيارةً لنقلها إلى المستشفى في حالة من الهرجلة واللهوجة فأجمع شتات نفسي، وأستبسلُ في إظهار شجاعتي وحُسن تدبيري حتى نصل إلى المستشفى ليقوم الدكتور بالفحوص اللازمة، ثم يلّتفت إليَّ وقد خضَّب الخجل وجهه

-"إنت قلبك رهيف كده ليه؟! .. بس هانت خلاص اليومين الجايين إن شاء الله".

فألتفتُ إليه مُستنكرًا:

-"يعنى إيه!؟ هنرجع البيت تاني !؟.. أرجوك فكر تاني يا دكتور قد يكون تمويه من البيبي، ما هو طالع لأبوه هيطلع لمين؟"

اتكأت ابنتي على يد الكنبة وقد شَخَصتْ عيناها نحوي، تتأملُني مُتبرمةً لأني أتوقَّفُ كل هُنيهةٍ وأخرى.

□□□ □□□□□1.indd 99 1/17/18 8:07 AM

-بابا .. بابا .. يعني إيه رُهيف دي؟

بابا أغلب الكلام مش فاهماه؟

نظرتُ إليها نظرة امتعاض وقد انتويت أن أُنهي القصة إلا أن إصرارها وتشبُّثها جعلني أمضي في الحكاية،

حتى هنا، وتكاثرت عليَّ الإنذارات الكاذبة، فأضحت زيارة المستشفى تقليدًا إجباريًّا لا ينّفكُ يتكررُ كل يومين أو ثلاثة، وطُبِعَت الزيارة بطقوسَ ومراسِمَ تبدأ بتحية الأطباء والممرضات، والأمر لا يسلم، فقد تظهر الإنذارات في غسق اليل، فتبدأ في ارتجال الظهور بداية من الساعة الواحدة، ولا يعنّي تلك الإنذارات أني أعمل طوال النهار، ولا يتوقفُ ذلك عندما أعودُ إلى المنزل بل أستتبعُه بعملٍ آخر، هو تنفيذ طلبات زوجتي فيصبحُ حالي أقرب إلى عمال التراحيل الذين لا يستقيم ظهرهم من كثر الاحمال المتوالية ليلاً أو نهاراً، فيُقضُّ الأرقُ مضّجعي، ويُرافِقُني السُّهاد ليومٍ طويلٍ.

أستكمله في الصباح في نوبات نومٍ مُتقطعةٍ في الميكروباص أو بين غفوةٍ أستحدثها في منتصف النهار، أهجعُ فيها مُعانِقًا سَطْحَ المكتب كمخدةٍ وثيرةٍ أسّلبتني كل محاولات النشاطِ، والحق يُقال، إن ردودَ أفعالِ الطاقم الطبي كانت شبه موحّدة، فكانت تتنوعُ ما بين "إنت قلبك خفيف" "إتقل كده"

□□□ □□□□□1.indd 100 1/17/18 8:07 AM

"شكله المولود الأول" "اللى يسيب ودنه للحريم ""كله بأمره" بخلاف الكثير من التعليقات الجانبية التي تسمعها كشظايا عابرةٍ تُطلِقُها الممرضات تلميحًا لا تصريحًا.

ولا شك إن النوم إحدى النِّعم المغبونون فيها، إحساس رائع أن تغْمُرك السكينةَ بعد يوم شاقٍّ من العمل، أن تُسْلِمَ رأسكَ للمخدة و تلّتحفُ غطاءً ناعمًا وأنت مستحوذاً على السرير بأكملِه، فتتقلبُ كيفما تشاء، لتشعر بسطوتك وجبروتك في التنقلِ داخل حدوده، مُمارسًا حريتك في التشقلب والترفيص دون التفكير بمن حولك.

تسلبك المغامرةُ احساس الخوفِ والترقّب، فتسري النشوة داخلك، و يتناغمُ ذلك بشعورك بالغوصِ بين أمواجِ الغطاء وكأنك بين أمواجِ البحرِ،

تتلالأُ أشعةُ الشمسِ كقطعة ماس تبرقُ على صفحة الماء كالمدلك ذي الأنامل البارعة، ينزعُ منك الإرهاق والتعب

فجأة ..

اغتصب صوتٌ هادرٌ متعة السباحة، كأنه باخرة تمْخرُ عُباب البحر، لا بل هي ناقلة نفطٍ فظِلُّها يتغشَّاني ..

سأموت ..

سأموت

□□□ □□□□□1.indd 101 1/17/18 8:07 AM

لم ينقذني إلا كَفٌّ على وجهي وصوت ناهد وهي تصرخ:

- الحقني .." هاولد ".. مش قادرة ..بسرعة يا سامح

.. بسرعة ..

انّتفضت ابنتي ضَحِكًا وهي تتخيل الموقف:

- هههههه مرددةً بسرعة يا سامح .. يلا بسرعة هاولد ..

حسنًا كادت إنذارات ناهد الكاذبة تُذكِّرُني بقصة الراعي والذئب التي قصصتهُا عليك وأغلب ظني أنه جاء الوقت لأقوم مقام أهل القرية، وأن أنكر تلك الإنذارات الكاذبة، فقليلٌ من النوم لن يفرقَ معها شيئًا لكن سيهبُني شيئًا من الراحة بعد يومٍ شاقٍّ ومُرهِقٍ

لمْ أكد أُغمضُ عينيَّ حتى شَقَّ أزيز طائرة ميراج ١٦ أذني بصُراخ زوجتي:

- "إنت هتنام .. هتنام وأنا كده .. فينك يا ماما؟ فينك يا بابا؟ إنت مش حاسس باللي فيَّا .. أنا هانزل لوحدي .. أه .. أاااه .. إلحقيني يا ماما..

وأمام عاصفةٍ من النواح لم أجد بُدًّا أن أتعامَلَ مع هذا الإنذار كأنه جادٌّ، فلبستُ ملابسي بتكاسُلٍ طَرَدَهُ نواحُ ناهد وصراخُها فنفضتُ النُّعاس

□□□ □□□□□1.indd 102 1/17/18 8:07 AM

وقمتُ بالمُقرَّر الرُّوتيني، اتَّصلتُ بسائق التاكسي، وأنا أحاول تهدئة ناهد، وقد آثرتُ نفسي بغفوةٍ سريعةٍ لا تتجاوز ثواني عدة، انتزعتني منها بصيحة تأوُّهٍ مُفاجئةٍ.

قابلتنا الممرضة بابتسامةٍ نصف ساخرة، أظنُّها تتشفَّى فيّ أو هكذا خُيِّلَ إليَّ.

-خير ..

-خير بس شكلها المرة دي بجد.

-ما هو كل مرة تجي تقول بجد .. إنت قلبك خفيف!

ابتسمت لها ابتسامةً صفراء مُتسائلاً:

-أين الكرسي لننزلها من السيارة؟

دَخَلَت ناهد المستشفى وهي تُحوْقلُ وتُبسملُ وتُمسك بكفي ..

-لا تتركني يا سامح .. أرجوك خليك معايا.

-طبعًا يا حبيبتي، إن شاء الله خير ..

كَشَفَ الطبيبُ على ناهد، وعاين حالتها، ثم أَمَرَ بتجهيز غُرفة العمليات.

يبدو أن الموضوع جادٌّ هذه المرة

هناك عمليات ... كنتُ أتساءل بدهشةٍ: لماذا أنا قَلِقٌ لهذه الدرجة؟

□□□ □□□□□1.indd 103 1/17/18 8:07 AM

الموضوع عادي!؟

ثم ألتفتُ إلى نفسي مُتعجبًا لهذه الإسطمبات الجاهزة من الإجابات .. عادي إيه؟

هو أنا خلّفت قبل كده؟

ولا اتجوزت قبل كده؟ أنا غريب فعلاً!

القلق طبيعيٌّ ومَنطقيٌّ في هذه الأمور، لكن إن شاء الله الأمر سيكون بسيطًا وسهلاً، لم أجد غير أمي أهتدي بحكمتِها وخِبرتِها في الحياة، فأمي – ما شاء الله – أنجبتنا تسعة، ولها من الخبرة الكبيرة في الإنجاب ما يُهوِّنُ على ناهد الكثير،

فاتَّصلتُ بها .. وطلبتُ منها أن تُهدِّئَ من رَوْعِ ناهد خاصة وأن حالتها الصحية لا تسمح لها بزيارتنا في المستشفى، فأخذت تدعو لنا بالخير وأن يُتمَّ الله ولادتها على خيرٍ، وطلبتْ إليَّ أن أفتح سمّاعة الجوال الخارجية لتكلم ناهد.

انتشت ابنتي فَرِحَةً؛ فهذه الفترة تاريخية في حياتِها ولأول مرة تعرف هذه التفاصيل.

-كيف حالك يا حبيبتي؟

لا تقلقي يا ناهد فالأمر يسيرٌ، لن تشعري بشيءٍ، هل تعرفين كيف أنجبت سامح؟

□□□ □□□□□1.indd 104 1/17/18 8:07 AM

كان الأمر في غاية البساطة، كنتُ أتسوَّقُ في سُوق الخضراوات، وبينما أتخيَّرُ من البِّطيخ أحسنَه..

إذ فجأةً سمعتُ صوت بكاءٍ تحتي، فالتفتُّ إلى الأسفل فوجدتُه سامح، وعندها أصرَّت بائعة البطيخ أن تأخذني لبيتها لأتخلَّص من مُتعلِّقات الحمل، ولم يستغرق الأمرُ ساعةً حتى اغتسلتُ وذهبتُ إلى المنزل، أنمتُ سامح وحضَّرت الأكل لعمِّك الحاج حمدي. فاكر يا سامح واعي للكلام ده يا حبيبي..

لم يكن أمامي إلا التصديق على كلام ماما .. فهل من المعقول أن تُخطئ أمي أو تؤلِّف !؟

بالطبع لا

-طبعًا فاكر يا ماما ..

-"تلاقيك لا فاكر ولا حاجة، إنت شكلك ما توعاش للكلام ده"، كنت صغير برضه.

تابعتُ ملامِحَ ناهد وهي تسمعُ الحوار كأنما تشربُ شربة زيت خروع، فقد تغيَّر وجهُها وتناوبَ حاجباها الارتفاع والهبوط، وامتدت شفتاها للإمام، ثم التوى فمها فجأة، حين وصلت أمي لجزئية أنها أنامتني وعملت الاكل لأبويا الحج .. حتى ظهر أن الكلام سيكون له الأثر، إنها ستلد قبل موعدها، وردت بصوتٍ مبحوح من التململ ..

□□□ □□□□□1.indd 105 1/17/18 8:07 AM

-شكرًا يا حماتي .. ادعلينا بس الموضوع يبقى سهل.

-هيبقى سهل أوي .. إنت فاكر لما ولدت اختك فاطمة .. لا ولا هفتكر إزاي، إنت كنت لسه ما اتولدتش .. فايزة اللي تفتكر كانت كبيرة وقتها .. أختك فاطمة دي .. حكايتها حكاية .. كنت زعلانة مع عمك حمدي علشان مكنتش بخلّف إلا بنات بس ...

أشارت ناهد إليَّ بالاقتراب .. وهمستْ في أُذني:

- مش القصة دي سمعناها قبل كده أكثر من عشر مرات ..

فعضضتُ على شفتيَّ لتُمررها .. فماما مغرمة بتكرار القصص إلى حدٍّ أنها أصبحت مُقرَّرًا أذاكره من أيام المدرسة، حفظته عن ظَهْر قلبٍ.

استأذنتُ أمي لنستعدَّ لدخول ناهد غرفة العمليات، وقد تأبطتُ حكاياتها، واستفادتُ بخبرتها العريضة في إنجاب الأطفال النجباء أمثالي وأمثال إخوتي العباقرة.

احتضنت يدي ناهد وهي تدخل غرفة العمليات ولساني يلهجُ بالدعاء مُثبتاً إيَّاها وهي تُلحُّ عليَّ

-عاهدني يا سامح ألا تتزوج واحدةً غيري إن حدث لي شيئًا .. عاهدني ألَّا يُربي ابننا أو ابنتنا إلا أمي وأبي ..

□□□ □□□□□1.indd 106 1/17/18 8:07 AM

ضغطتْ على يدي:

-عاهدني يا سامح ..

احتضنتُ يديها بيدي الأخرى هامسًا:

-أُعاهِدُك يا ناهد أني لن أكون ديكتاتورًا، ولن أختار اسم المولود بمفردي، وسأمنحكِ شرف مشاركتي الاسم ..

وبين نداء الممرضة وصُراخ ناهد .. تركتُها وقلبي مُسجًّى بين يديها، ومرَّت الدقائق طويلة سمجة، والهواجس تعبث بي، ولم تمضِ لحظاتٌ حتى هَتَك صوتٌ سِترَ الصَّمت ..

-مبروك ألف مبروك يا سامح .. ولد ولا بنت ..

-مين؟ راجي!

نظرتُ إليه من أعلى إلى أسفل .. مُتسائلاً إيه اللي ولد ولا بنت! لم تدخل العمليات بعد.

فأشاح بيديه مازحًا:

-إنت على طول بتحب تضحك كده .. أنا بقولك المولود ولد ولا بنت ده الناس بتعرف قبلها بـ بستةشهور، إيه بنت ولا ولد.

فمططت شفتيَّ إلى الأمام، لم أحاول أن أعرف، أريدُ أن تكون مفاجأة.

□□□ □□□□□1.indd 107 1/17/18 8:07 AM

-ألا تُفضِّلُ الأولاد على البنات؟

-لا، ولا البنات على الأولاد كلهم رزق من الله وفضل،

-لكن نفسك تهفو إلى أحدهما بالتأكيد!

-نفسي تهفو إلى كَرَمِ الله

وبعدين .. إنت مالك إنت أهفو ولا لا أهفو،

-مش هتفرق في الآخر رزق،

-بس على الأقل تكون محضر اسم سواء للولد أو للبنت .. محضر لبس .. محضر بلالين .. أي مظاهر احتفال، بس أكيد لازم تكون محضر أسماء هتسمي المولود إيه.

قَطَعَ جِدال راجي مجيءُ الممرضة لتزُفَّ إلي بُشرى المولود الجديد بنت ..

بنت ..

لقد رزقني الله بنتًا

ما أجمل رِزق الله!

كنتُ كالظمآن إذا استنفد كل الصبر في قلبه ليطل عليه الأمل في وجه الممرضة باشَّةً، ليجعلُ الخبر لي جناحين أُرفرفُ بهما في أروقة المستشفى

□□□ □□□□□1.indd 108 1/17/18 8:07 AM

كان كل شيءٍ فرحًا، كل شيءٍ يُشارِكُني الحمدَ، فلساني يَلْهَجُ بالحمد على ما رُزقتُ، والحمد على صِحَّة ناهد، والمُلصقات التي تُزيِّنُ أبواب الحضانات تتهادى نَغَمًا على دقات قلبي، وميكي ماوس يُراقِصُ ميمي في غرامٍ وسعادةٍ وتيوتي يُزقزقُ كما لو كان في حفلةٍ تتكريَّةٍ، حتى راجي اعترت شفتيه ابتسامةٌ لأول مرة أراها منذ كُنَّا صِغارًا.

-بنت يا راجي ..

لحظات وجمعني وناهد جُدران الغرفة، وبعد أن ذهبتُ بالمولودةِ إلى الحضَّانة .. سَبِرَت الفرحةُ أغواري فلم أعرفُ بماذا أبدأ .. لم تَطُلْ لحظاتُ الانتظار حتى غمرتنا رسائل ومكالمات التهنئة، لحظات ودَقَّ باب الغرفة

ليدخل صديقي راجي وياسمين وبعد مزيج من الأسئلة والتطمينات انبرت ياسمين تسأل:

-هتسموها إيه؟

ردَّت ناهد:

-على اسم أمي.

فتدخلتُ ضاحكًا:

-ولماذا ليست على اسم أمي .. نظيمة مالها!

□□□ □□□□□1.indd 109 1/17/18 8:07 AM

فتنحنحت ناهد:

- طيب لماذا لا يكون .. هويدا ..فاسم أمي أكثر عصريةً من نظيمة ..

-لا لا يا ناهد، كله إلا اسم ماما ..

تدخلت ياسمين:

-أنا شايفه إن ممكن تختاروا اسم آخر بعيد عن أسماء أمهاتكم. ما رأيكم في عفاف؟

ريهام؟

سعاد؟

تدخَّلَ راجي:

-كلها أسماء قديمة يا ياسمين ..

لماذا لا تكون تولين؟

أورنينا؟

-نعم! مين؟ إيه؟ أورنينا مين يا راجي؟

-ده اسم رائع ومعناه مميز جداً

دي إلهة الموسيقى عند البابليين والآشوريين

□□□ □□□□□1.indd 110 1/17/18 8:07 AM

طيب إيه رأيكم في أوتيليا؟

-وده معناه إيه؟

-خسوف الشمس باليوناني؟

-روح يا شيخ وتعال بسرعه، إيه الأسماء دي؟!

-لا يا سامح .. سأسميها ناهد على اسمي.

-ولماذا تكون ناهد أُس اتنين

لأ طبعًا هذا غير مقبول ..

-لماذا أتظنُّ أنَّ كونك رجلاً يعطيك الحقَّ أن تقوم بأي شيءٍ دون إذنٍ مني.

-الأمر ليس كذلك.

تدخَّلت ياسمين:

-هناك لحظاتٌ فعلاً يعطي الرجل نفسه الحق في فعل أي شيءٍ فقط لأنه رجل .. ولا يراعي...

تدخل راجي مقاطعا:

-يا جماعة ... المناسبة لا تحتمل هذا الكلام .. ياسمين من فضلك .. أعتقد حان وقت ذهابنا.

□□□ □□□□□1.indd 111 1/17/18 8:07 AM

قاطعتني ابنتي مُتسائلةً:

– مين دول يا بابا؟ أنا مش حبتهم خالص ..

احتدمَ الخِلافُ بيني وبين ناهد ، وعلا صوتانا، ولم أراعِ أنها قد وضعت وليدها للتوّ، كما أنها لم يبدُ عليها أي مظاهر للتعب أو الإرهاق، فقد كان نقاشها أشبه بطلقات مدفعيةٍ في حالة اشتباك. فلم يلبث أن جاء اقتراح راجي أن نسمي البنت بطريقةٍ مُبتكرةٍ،

أن نسميها باسم أول شخصٍ يطرُقُ باب الغرفة.

بلغ الحماس بابنتي مَبْلَغه:

–يعني إيه؟ أنا اسمي وليد الصدفة!

ونالت الفكرة إعجابنا جميعًا، وظللنا في حالة توجُّسٍ وترقُّبٍ:

مَنْ سيطرقُ الباب؟

وكلٌّ يدعو أن يكون اسم مَنْ يطرق الباب على هواه،

وفجأةً علت أصواتٌ تقتربُ مِن الباب،

والكل أصاخ السَّمعَ، وعلت دقاتُ قلبه مُتخيلاً اسم البنت المسكينة التي تسكن الحضّانة المجاورة

ماذا سيكون اسمها

مَنْ سيطرُق الباب، وما أصل الاسم!

□□□ □□□□□1.indd 112 1/17/18 8:07 AM

هل سيكونُ مُكرَّرًا؟

وهل سنُذعنُ له أم سيكون مِنَّا مَنْ سيتمرَّدُ عليه ويُعلن العِصيان؟

الخطوات ثقيلة تزحف على الأرض زحفًا ..

يبدو أنها أمي..

لا، إنها أمها..

عمي .. لا عمي رشيق ..

حماتي لا ... لا حماتي خطواتها بطيئة،

التفتُّ إلى راجي ..

-كأنه صوت شبشبٍ يزحف على الأرض.

غير معقول هل ستأتي حماتي بشبشب؟

لحظات ..

وفُتِحَ الباب ...

لتظهر ممرضة أثيوبية سمراء مع ابتسامةٍ تظهر أسنانها البيضاء الناصعة، وقد انحنى ظهرُها مع لمحة حُسنٍ تُشكِّلُ ملامحها ..

فاقترب الجميع منها

فارتعبت ... ثم قالت بلغة عربية مكسرة ..

□□□ □□□□□1.indd 113 1/17/18 8:07 AM

-هو فيه حاجة؟!

وفجأة علا صوت ناهد وهي تقول:

- لا !!!!!! ..

لا لن أستجيب لنتائج اللعبة ..

هل من المعقول أن نُسمي ابنتنا كذلك !

-وفجأة دخلت علينا ناهد لتصيح بصوت عالٍ:

- ديستا ..

لماذا تسهرين هكذا إلى وقتٍ متأخِرٍ؟

هل انتهيتِ من واجباتِك؟

□□□ □□□□□1.indd 114 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 115 1/17/18 8:07 AM

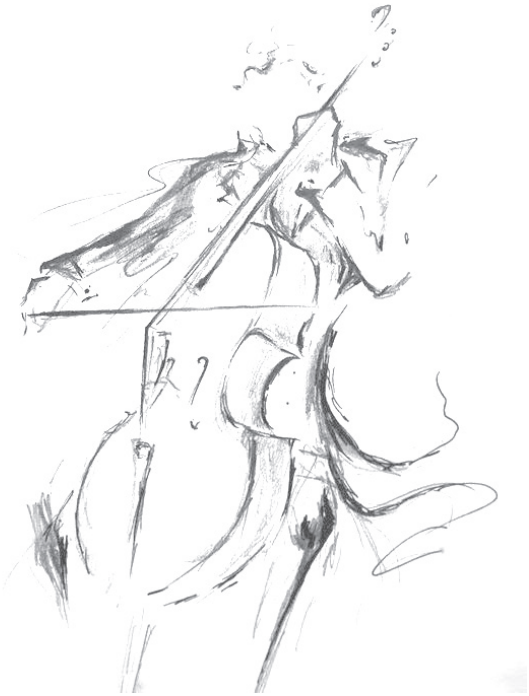

□□□ □□□□□1.indd 116 1/17/18 8:07 AM

فيلم برونو

وقتها نُدْرِكُ مدى ضحالة التعليمِ الذي تلقيناهُ، لنصبح في مواجهة "الفهلوة والفكاكة" وجهًا لوجه، إما أن تعملُ على نفسك وتختارُ الطريقَ الصحيح لتحقيق هدفك, وإما أن تتسلَّحُ بمنطق "إحنا اللي دهنّا الهوا دوكو؛"

□□□ □□□□□1.indd 117 1/17/18 8:07 AM

تثاءب أمجد وهو يجرُّ قدميه إلى باب الشركةِ جرًّا، المَشاهد كلها مُشوَّشة، يغالبه النومِ كرجلٍ فتيٍّ يُصارِعُه فيحاول المقاومة، وما يلّبثُ أن يَصرعَه، فيُراوِدُ رغبتَه في الاستسلام بفتح عينيه على اتساعهما، فما يلّبثُ أن تخورُ قواه لتنْسدل جفونه رافعةً راية الاستسلامِ، يؤزُّه في ذلك وخزُ ضميرٍ لا يعرف الراحة، يتتبعه كلصٍّ فقدَ طريقه، يوقظه كل لحظةٍ من نومه بعد يومٍ طويلٍ كابَدَ فيه التعبَ، إنتهى مع ساعاتِ الفجر الأولى، والمفارقة أن نظام العملِ يفرضُ عليه الحضور مُبكرًا ليثبتَ حضوره على جهاز البصمة.

شدَّ أمجد نفَسًا طويلاً من السيجارة وهو يتكئُ بذراعِه على الحائط المُجاور لبابِ الشركةِ، مُتأملاً تلك السُّحبَ الرمادية التي تخترقُ الهواء النقي بقوةٍ، مُعلنةً رفضَها لحالة السكون، ثم ما تلّبثُ أن تتبدَّد بعد ثوانٍ معدودةٍ كأنها لم تكن، رمق السيجارةَ بين أصابعِه باشتهاءٍ مُتردِّدًا...

أيطلقها من بين أصَابعِه، أم يؤثرُ نفْسه بنفَسٍ آخر!

إستمتع أمجد بنفَسٍ آخر مُنتشيًا بلذَّتها، تلاشت السيجارة بين أناملِه كنشوةٍ زائلةٍ وتناثَرت بين ذرات الهواءِ، صعدَ أمجد السُّلَّمَ مُتصنِّعًا النشاط، مُحاولاً أن يوقظَ نفسه بدندنة أغنيةٍ قديمةٍ لاحت في ذاكرته، إلا أن لوحةً كبيرةً مُثبتةً على واجهة السُّلّمِ ألجمتْ لسانِه (الغناء حرام).

□□□ □□□□□1.indd 118 1/17/18 8:07 AM

ارتقى إلى مكتبه في صمتٍ، ضغط بكفِه على نظام البصمة مُثْبِتًا حُضورَه ثم خَرَّ على كرسيه كمن هوى من عَلٍ، وأسند رأسُه شاخصًا ببصرِه إلى سقف الغرفةِ لا ينوي على شيءٍ، نظر إلى ساعته فوجدها السابعة والنصف صباحًا،

رغم أنني أنهيتُ عملي الساعة الثانية والنصف بعد منتصفِ الليل فإن نظام العمل يُحتِّمُ عليَّ أن آتي في الصباح الباكر كل يومٍ لأثبتُ للنظام أني "أعملُ"

ورغم أنني عادة لا أفعل شيئًا، وأن جُلَّ وقتي قد أقضيه بين نومٍ وعبثٍ، فإن بعض الشركات ترى إن قيمةَ العملِ في الالتزام بالمواعيدِ لا في النتائج.

أضأتُ نور الاستوديو، فتحتُ الأجهزة، وضعتُ السماعات لتحتضن أذنيَّ في محاولةٍ للاستيقاظ، بالاستماع إلى التوزيع الموسيقي لحفل الأمسِ، كان حفلاً جميلاً..

الحفل الأول الذي أُعِدُّ هندسته الصوتية بعد وصولي الخليج...

حسنًا، إنه جميل، لكنه ليس على مستوى الأعمالِ التي كنتُ أقوم بها من قبل ، لكني أديتُ دوري – على الأقل – بشكلٍ احترافيٍّ، أبَتْ ابتسامةٌ ساخرةٌ إلا أن تحتلَّ ملامحي

□□□ □□□□□1.indd 119 1/17/18 8:07 AM

فمفهوم الاحتراف مفهوم مطاط في بلادنا، فلدينا نظرةٌ قاصرةٌ أننا دومًا الأفضل والأذكى والأمهر..

يُرسِّخون في أذهاننا أننا ورثة حضارة سبعة آلاف عام، ورثة صُنَّاع الأهرامات وأحفاد العظماء، يغرسون تلك الأفكار نبتة صغيرة حتى تترعرعُ داخلنا فنتشرَّبَها حتى الثُّمالة، فتظهرُ عورات خبراتنا فجةٌ في أول احتكاكٍ فعليٍّ بالعالم من حولنا..

وقتها نُدْرِكُ مدى ضحالة التعليمِ الذي تلقيناهُ، لنصبح في مواجهة "الفهلوة والفكاكة" وجهًا لوجه

إما أن تعملُ على نفسك وتختارُ الطريقَ الصحيح لتحقيق هدفك، وإما أن تتسلَّحُ بمنطق "إحنا اللي دهنّا الهوا دوكو"[1]؛ لذا قررتُ أن أجتهدُ لأصبح واحدًا من المحترفين الذين يُشهدُ لهم بالمهنية والمهارة؛ فقد أجمع فريق العمل على إن الآداء فاق المعتاد، و أثنى كلٌّ من المخرج ومدير التصوير والإنتاج على جودة العمل، وأشاد العميل بأدائي.

التقطت اذناي تهادى صوت أقدامِ أبي نواف الثقيلةِ على الدرجِ، لمحت انعكاس صورته على شاشة الكمبيوتر، وهو يرتقي الدَّرَجَ مُتوجِّهًا نحو الاستوديو، فابتدرني بالسلام بصوته المبحوح

فالتفتُّ إليه مبتسمًا.. فـ"أبو نواف" ليس صاحب الشركة التي

١- مثل شعبي مصري يعبر عن الفهلوة والشطارة.

□□□ □□□□□1.indd 120 1/17/18 8:07 AM

أعمل فيها فحسب، بل كفيلي[1] الذي أنتمي إليه، ردَدْتُ سلامَه بوُدٍّ ظاهرٍ:

– وعليكم السلام.. أخبارك إيه يا أبو نواف!

كان أبو نواف رجلاً طويل القامة، عريض المنكبين، يلبسُ ثوبًا أبيضَا ناصعاً على الدَّوام، مع غُترةٍ بيضاء تُغطي رأسه دون عِقال، يميلُ وجهُه إلى البياضِ مع حاجبين لم يعرفا معنى التشذيب وذقنٍ أسودٍ داكن اللون أشعث، يصلُ إلى مُنْتصَفِ صدره، يتميزُ بحِدَّةِ الطِّباع وسرعة الغضب،

تقدم أبو نواف خطوات ليقفَ على باب الاستوديو وسألني بنبرةٍ هادئةٍ:

–عسى أمورك تمام..

إيش اخبارك؟ علومك

كلشن زين؟

ثم تحوَّل صوتُه من النبرةِ الهادئة إلى أعلى قليلاً، ومع حركةٍ خفيفة من يديه:

–يا خوي أمجد .. وشو الخرابيط اللي سويتوها أمس في الحفل؟ وشو هالشغل؟

١–صاحب العمل وفق النظام في منطقة الخليج العربي.

□□□ □□□□□1.indd 121 1/17/18 8:07 AM

أحسستُ أن أحدًا ألقى بي من نافذةٍ في الدور العاشر على حين غِرَّة، فهززتُ رأسي مُحاولاً نفض النوم وقد تلعثمتُ، فخرج الكلامُ مُبعثَرًا:

-أي شغل يا أبو نواف؟

فجاء ردُّه حادًّا مع تلويحةٍ حادةٍ بيديه:

-وشو تستهبل أنت؟

أقولك شغل الخرابيط تراك ما سويت غيره!

-تقصد حضرتك الحفل؟

كل من حضر الحفل أثنى عليه وعلى الجهدِ المبذول فيه.

-وشو اللي أثنى وما أثنى!

هذه خرابيط أقول..

انتفضتُ وقد طار النوم من عيني

-أبو نواف ما عيوب الشغل من فضلك؟

حرَّك أبو نواف يديه بلا مبالاةٍ وتركنيّ وهو يُغمغمُ بشيءٍ ما، حاولْت فهمه فشقَّ عليَّ، لكني استوعبتُ أنه غاضب، وأن الحفل لم يرُقْ له، كما لم يرُقْ لي أيضًا أسلوبه في الحديث معي وتجاهله لسؤالي دون إجابة تشفي غليلي.

□□□ □□□□□1.indd 122 1/17/18 8:07 AM

تسمَّرتُ مكاني لحظاتٍ أستحضرُ الموقف من جديد، مجتهدًا في ربط الأحداث بعضها ببعضٍ، فكل المؤشرات تشيرُ إلى أن الحفلَ حاز رضا الجميع، أو على الأقل هذا ما اعتقدته، إلا إذا كان هناك مَنْ يُمارِسُ عليَّ التَّقية[1] فيقول في وجهي رأيًا ويُغيِّرُه عند أبي نواف، ووقَعَ في ذهني أن هذا فعلاً ما حدث، وكإنسانٍ محترفٍ قررتُ مُراجعة مَشاهِدِ الحفل مَشهدًا تلو الآخر لمعرفة العيوب المهنية التي يمكن أن تُؤخَذَ عليَّ.

وأغلقتُ بابَ الاستوديو، وسرَّبلتُ أذناي بالسماعات وانخرطت عيناي في متابعة مشاهد الحفلِ بتمعُّنٍ شديد..

مشهداً مشهداً...

كان شريطان يدوران في ذهني في الوقتِ نفسه، شريطُ الحفلِ الذي بدأ بالاستعداد لدخول الأمير، مُتواكبًا مع شريط حياتي الذي بدأ في معهد السينما بقسمِ صوتيات، وتَفوُّقي وانبهار الدكاترة بي في ذلك الوقت وبُشراهم لي بمستقبلٍ واعدٍ.

الاستعداد على قدمٍاً وساق، نريدُ تجربةَ الإضاءة.. الإضاءة من فضلكم.. كان أحمد السعيد "المخرج" يزعق في مُكبِّر الصوت:

-البروفة النهائية يا أساتذة..

حسنًا سأعدُّ ثلاثةً ثم نبدأ الإضاءة

١-أظهار عكس ما يضمر.

□□□ □□□□□1.indd 123 1/17/18 8:07 AM

-واحد

اثنان

ثلاثة، داير.

انبرى مهندسو الإضاءة في العملِ؛

حيث تتمازجُ الألوان بشكلٍ ساحر كلوحةٍ تشكيلية عملاقة، يشاركُ فيها عشرات الفنانين بفُرشهم وأدواتهم.

في مسرح الجامعة، كان لقائي الأول مع الدكتور نيازي، وهو يُقدِّمني إلى الفنان سليم بأني اكتشافه في مجالِ الصوتيات، الاكتشاف الذي سيُحدث ضجَّةً مُدويةً في عالم الفن.. وقتها.

لم أصدق نفسي أني أقابل فناني المحبوب سليم وجهًا لوجه؛ فأنا مُتابِعٌ مُخلِصٌ لأغانيه وحفلاتِه، خيالي لم يجنح يومًا لأتصور نفسي أعمل معه جنبًا إلى جنبٍ

نعم أعمل معه في الفرقةِ الموسيقيةِ نفسها.

يا جماعة نركز شوية.. عارف إننا شغالين بقالنا ١٦ ساعة في الموقع، لكن الحفل بعد بكرة ومفيش مساحة إننا نغلط.. يا ريت مسؤول المجاميع ينتبه إن إشارة بدء دخول الفرق الشعبية هتكون

□□□ □□□□□1.indd 124 1/17/18 8:07 AM

مع آخر الجملة الموسيقية اللي هيعملها أمجد

نجرب تاني يلا..

واحد، اتنين، تلاتة، أكشن..

أيوه .. أيوه .. إيه الجمال ده؟

برافو يا جماعة.

.. Final rehearsal

بروفة نهائية، كل واحد ياخد موقعه بسرعة يا أساتذة..

أهرولُ بكل قوتي لأُلبِّي دعوة سليم في حضور حفل التكريم في مهرجان الأغنية العربية لأُفاجَأ بحصولي على جائزة أحسن مهندس صوت، إحساس رائع يشوبه الفخر، نظرات التقدير تحيط بي من كل جانبٍ، وفلاش الكاميرات يتعقبُني، بين يومٍ وليلة أصبحتُ نجمَ غلاف..

□□□ □□□□□1.indd 125 1/17/18 8:07 AM

وتكاثَرت عُروض العمل عليَّ كسربٍ من الفراشات مأخوذاً بالضوء.

طرق النجوم بابي لأعمل معهم، لكني آثرتُ الإخلاصَ لسليم؛ فهو بوابة الرزقِ وفأل الخير، التي ببشارتها فُتِحَتْ الأبوابُ المغلقة.

قطع سيلَ ذكرياتي صوت أحمد سعيد المخرج:

-أمجد.. أمجد.. .. هل قابلت أبا نواف اليوم؟

-نعم قابلته، وليتني ما قابلته؛ فقد ذمَّ عمل أمس كله ونعته بأنه "خرابيط".

أومأ أحمد السعيد برأسه متابِعًا:

-كلمني الساعة الثانية فجرًا، ولامنّي، وأنَّبني فيما يخص الهندسة الصوتية.

-جميل.

ردَّ أحمد:

-وما الجميل في ذلك؟

-الجميل أن نعرف أين مواطن القصورِ في العملِ؛ فأنا لستُ بمبتدئٍ حتى أترك نقداً خلفي، وظني أني اجتهدت لأُخرجَ الحفل بصورةٍ رائعة، خاصة أني اطّلعتُ على الحفلات السابقة، ومستواها متواضِعٌ بجانبِ ما قمت به.

□□□ □□□□□1.indd 126 1/17/18 8:07 AM

إلتفتُّ إلى جهاز المونتاج ..

-انظر هنا يا أحمد..

إلى هذا المشهد.. الموسيقى متناسقة حتى مع تغيُّر وقع الإيقاع، التغييرُ انسيابيٌّ بشكل رائع لم يلحظه أحد!

دقِّق السمع هنا..

أحمد:

-أين بالضبط؟

-صه يا صديقي.. هسسسس.

تفاعَلَ أحمد معي كأنه يرى المشهد للمرة الأولى.. علا وجهه شبح ابتسامة .. مالبثت أن كلَلتْ ملامحه ..مشيرًا بإصبعه إلى الشاشة:

-انظر إلى حركة المجاميعِ وتلك الصياغة الموسيقية الساحرة.. فعلاً يا أمجد .. إبداع، لم أتخيلْ أن تكونَ إضافتك للعملِ بهذا الثراء؛ فلقد عملتُ بالشركةِ في حفلاتٍ عدة، لكنك صنعتَ من هذا الحفل تُحفةً فنيةً؛ فلمساتُك الاحترافيةُ أضْفت بهاءً عليه لم يكن ليتحقق من دونك

ولكن - للأمانة - هذا الحفل الأول الذي أعمل فيه تحت إدارة أبي نواف مباشرة

□□□ □□□□□1.indd 127 1/17/18 8:07 AM

فما زلتُ حتى الآن لا أعرف سبب تذمُّرِه أو نَقْدِه للعمل، على أي حال سأذهب لمقابلته وأعرف وجهة نظره وأعود إليك.

أومأتُ برأسيَ، ووضعت السماعات مُستغرقًا في مُراجعة الحفل من جديد علّي أجد مَواطِنَ القُصور التي قَلَبَت إنجازي إلى "خرابيط".

ها قد اقتربت اللحظةُ المهمة مع اعتلاء الأمير المنصة ليعلنَ انطلاق الاحتفال بالدورةِ الثالثة للعملِ الوطني، اجتهدتُ في بلورة تلك اللحظة بعملِ ملحمة موسيقية بين الإيقاعات المحلية والجمل الموسيقية.

مع انتهاء كلمة الأمير، بدأت مجاميعُ الرقص الشعبي في اعتلاءِ المسرحَ، وشرعت الرقصات التراثية تصاحبُها الأهازيج الشعبية، وتتمايلُ على إيقاع الخُبيتي[١]، تتبعها الفرقة الأولى يُغازلها إيقاع السامري[٢] في مشهدٍ بديع.

بدأ الإيقاعُ في التصاعُدِ شيئًا فشيئًا، والجمل الموسيقية تتلاحقُ لاهثةً في تبرّم واستعجالٍ لخروج الفنان سليم مع المطربة العالمية ساندرا في أولِ دويتو يجمعهما معًا، بتوزيعي أمجد مروان، تناغمت

١-٢: إيقاع تراثي في المجتمع الخليجي.

□□□ □□□□□1.indd 128 1/17/18 8:07 AM

الألحان لتحصدَ الأغنيةُ الجائزةَ الذهبية في استفتاءِ أفضل توزيع موسيقي للسنة الماضية.

يا!!!!!!!اه!!

كل هذا التغيير حدث لي في سنةٍ واحدة، أو أقل؟

وفاة سليم

الانهيار العصبي الذي أوْدعني المستشفى شهورًا عدة

عزوفي عن العملِ

قبولي عرض العمل في الخليج بشركةٍ متواضعة.

شوَّش عليَّ صوت أبي نواف صارخًا في بداية ممر الاستوديو:

-وشو شغل وما شغل الله يهديك؟

هذا لعب بذران[1] تضحك فيه على حد غيري..

تقولي فن وهي أصوات نشاز؟

أفٍّ لكم..

استفزَّني الحوار فقمتُ متحفزًا لأسأله بشكلٍ واضح:

-يا أبو نواف لو سمحت، كلّمني بأسلوبٍ مهني

١- لفظ يقصد به الأطفال الصغار.

□□□ □□□□□1.indd 129 1/17/18 8:07 AM

أنا جديد على بيئتكم الاجتماعية، فأرجو أن توضِّح مواطن القصورِ..

لقد راجعتُ الحفل ولم أجد فيه عيوبًا تستحقُ هذا النقد الجارح.

احمرَّ وجه أبي نواف وأشعرني كأنني أهنته بكلامي بأنني لم أفهمْ العيبَ الواضح في الحفلِ على الرغم من شرحه غير المفهوم منذ الصباح.

-يا خوي أنت ما تفهم؟

أقولك خرابيط..

مو حفل هذا..

وشو هذي الموسيقى؟ هذا مو حفل،

هذا فيلم بورنو اللي انت مسويه!

هذا حفل إباحي - الله يرحم والديك-

ما تدري إن الموسيقى حرام؟

تدري ولا ما تدري؟

□□□ □□□□□1.indd 130 1/17/18 8:07 AM

نحن ما نشغل موسيقى..

إحنا نحط مؤثرات صوتية

هذا الحفلُ بالأسلوب هذا نرفعه على اليوتيوب ونسميه

فيلم بورنو

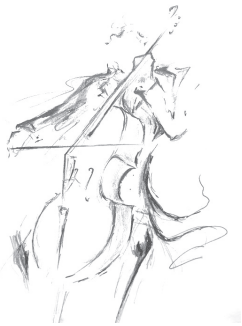

□□□ □□□□□1.indd 131 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 132 1/17/18 8:07 AM

فما تظهر ربطةٌ جديدة حتى يسارع لتعلُّمِها مُنفِقًا الساعات في تجربتها حتى الإتقان، ذوقه راقٍ في اختيار الألوان، له نظرةٌ فنانٍ في تَناسُقِها، فاختياراتُه مُبهرةٌ، فالبدلةُ السوداءُ لا يُظهِرُ أَلَقَها إلا قميصٌ أبيض مُقلَّم، ولا يزيدُها بهاءً إلا تلك الكرافته الحمراءُ كحسناءٍ يافعةٍ تتدللُ غرامًا.

□□□ □□□□□1.indd 133 1/17/18 8:07 AM

المكان مُظلم، الأجساد مكدسة جامدة أجناس من كلِ نوعٍ، وعلى الرغم من اتساع المكان إلا أنهم زُجّ بهم ها هنا، وكأنما تجمعوا في عنق زجاجةٍ

بصيص نورٍ ضعيف ينْبثقُ من فُرجةٍ صغيرةٍ على استحياءٍ

صمتٌ مُطبِقٌ يخيِّم على الجميع.

بعض همساتٍ متواترة كرذاذ المطر على الأسفلت، تُعبّقُ الجو ثم ما لبثت أن يتقاذفها البعدُ كأصواتٍ انزوت وتلاشت

هناك كانت هي مُعتدَّة بنفسها غير عابئة بما يحدث.

هم يضمرون نفس النِّيات، ولكن تنقصهم الجرأة، حتى شَقَّ الصمتُ صوت أحدهم:

-كان يوم مجيئك إلى هنا شؤمًا علينا..

-لا أدري ما الجميل فيك؟!

تبرَّمت ثم ما لبثت أن لاذت بالصمتِ من جديد،

لكن الرغبةَ في الرد أجبرتها على الحديث:

-أنا فعلاً أعاني من التعامُل مع أشكالكم، الموضوع ليس له صلة بالتشاؤم والتفاؤل، الموضوع "أصل وفصل" وشكل وإمكانات "لامؤاخذة".

□□□ □□□□□1.indd 134 1/17/18 8:07 AM

-إنتي .. أيوه إنتي .. "يا اسمك إيه ... أووووف أنا فعلاً بانسى أسماؤكم كلكم شبه بعض!"

تنحنح صوتٌ وقورٌ من الخلف .. قائلاً:

-"يا بنتي" .. "الملافظ سعد"، وراعي إن منا كبار في السن واجب عليك إحترامهم!

كانت كلمته كمستصغرِ الشَّرَرِ التي أضْرمت الفوضى، فانْطلقت الشتائم والاتهامات كقذائفٍ جاءت من كل حدبٍ تنصبُّ عليها، جاء صوتها ناعمًا صارمًا:

-" désolé،sorry" .. آسفة خلاص ....مش أقصد، أعتذر!

قليلٌ من الصمت آبى أن يستمر .. قطعه صوتُها:

-أووووف Sauvage فعلاً .. مش عارفة هاقضي اليومين دول إزاي بس!؟

تعالت الهمهمات من جديد كهَبَّات ريحٍ تقتلِعُ أوتاد الصمت المُهترئة

-إحنا اللي ربنا يصبرنا..

تعالى صوت من أقصى اليسار

-"هنجيب صبر منين بس من كلامها ده".

□□□ □□□□□1.indd 135 1/17/18 8:07 AM

ظهر الصوت الوقور ثانية:

- وبعدين!

-"ما هو أنت سامع بتقول إيه كل شوية ترطن كلمتين مش عارفين بتشتم ولا إيه!"

جاء الصوت الوقور هذه المرة أكثر حسمًا

-"من فضلكم إحنا بيجمعنا مكان واحد فلازم نتفهّم ده، وحضرتك لو سمحتي راعي مشاعر الآخرين أو اسكتي خالص.."

-تغشَّى الصمت المكان، فكأنما نزلت عليهم السكينة، وبعد فترةٍ ليست بالقصيرة خرج صوتها مُتململاً ..

-هل وصل بي القهر إلى أن أحدث نفسي incroyable غير معقول إحساس سخيف أن تجد نفسك في وسط اجتماعي لا يليق بك، فُرِضَ عليك قهرًا، أناجي نفسي بشظايا حنين لتلك الذكريات التي تُخاتلني كأنها نفحات نسيمٍ عليلٍ في ظل واقعٍ يلفظُ حُممًا بركانية، أفتقدُ تلك الأيام التي كنتُ فيها النجمة الأولى التي تُتداوَلُ صورُها المجلات والجرائد،

-"بتربطمي بتقولي إيه؟ اتخمدي يلا"

-"هو صنفه إيه ده؟" ثم بنبرة مململة جراء سُبل رفضهم لها خرج صوتها محمولاً على محفة الرجاء، بلا حياة ..

□□□ □□□□□1.indd 136 1/17/18 8:07 AM

-أرجوكم اتركوني بمفردي، ألا يحقُّ لي مناجاة نفسي حتى ولو همسًا، لحظة ..لحظة .. ما الذى جاء بي إلى هنا! ثم استدارت فجأة ..

-وأنت يا من تتمعِنُّ في قراءة تفاصيل حياتي بصمتٍ دون "إحم ولا دستور"، كأن حياتي اصبحت مَشاعًا.

نعم أنت ..

يا مَنْ تقرأ بتؤدةٍ وحرصٍ ألَّا تفوتك كلمةٌ من السياق، مَنْ سَمَحَ لك بأن تقتحم حياتي بهذا الشكل؟ وأن تُقلِّبَ صفحات حياتي كأنها قصةٌ تُقرأُ ؟

قصة تقرأ...

لا بد أنني كذلك، لا غَرْوَ في ذلك، فالأحداث كلها تشي بأنني الآن قصةٌ، عفواً على أسلوبي الفَجِّ، لكن تقلُّبات الحياة هي من صَنَعَتْ مِنِّي نصفاً من باريس والنصف الآخر من بولاق

لا بدَّ أنني أصبحتُ الآن قصةً تُقرأُ ولا مجال لي للنُّكوص أو الهرب، ورغم تحفظي على نشر تفاصيل حياتي الخاصة، فإن شغفي بالشهرة وبريقها سيجعل من قصة حياتي درساً خالداً للتاريخ ..

لذلك قررت أن أجعلَك تَلِجُ حياتي

فأنت البداية، وربما كنتَ سببًا في نهايةٍ مُختلفةٍ؛ لذلك سأروي لك قصتي ..

□□□ □□□□□1.indd 137 1/17/18 8:07 AM

البداية من باريس ... بلد الجمال والموضة، حيث اكتسبتُ الأصل والاسم الشهير،

كنتُ أحد اكتشافات العبقري هوبير[1]، الذي ما فتئَ يرسُم تفاصيلي بكل دقةٍ وامتياز، وأخذَ يتفنَّنُ في جعلي الأجمل والأروع،

متفردة بلا منازع، في القوام والتناسُق والجمال، حتى فاقتْ شُهرتي الكثيرين، فأُغرم بي أحدُهم

فكانت الرحلة من باريس إلى القاهرة

حيث البداية الحقيقية، فللقاهرة وقعٌ آخر .

لا بد أنك تصفني بقلَّة الذوقِ وعدم فهم الأصول، لأنني لم أُعرّفك بنفسي للآن..

ولكن التمسْ لي العذرُ، فتواتُر الأحداثِ أفقدني شيئًا من لباقتي، أنا يا سيدي العزيز "cravate" أو كما يقولون بالإنجليزية Necktie وبلغتكم أنتم يطلقون عليَّ رابطة للعُنق

لحظة لا تمْتعضْ ...

فلَستُ كرافتة عادية، أنا أرقى أنواع الكرافتات في العالم وأجْملُها وأفْخمُها

١- الكونت هوبير جيمس مارسيل تافين مصمم أزياء فرنسي أسس بيت جيفنشي ١٩٥٢م

□□□ □□□□□1.indd 138 1/17/18 8:07 AM

أنا كرافته جيفيشني

فرنسية الطابع، أصيلة المنشأ، جئتُ إلى القاهرة لأَسْكنَ شارع قصر النيل، وقد بدى لي واحداً من أهم شوارع القاهرة، رمزاً لإرثٍ حضاري كبيرٍ، شُيِّدَ على جانبيه المباني والمتاجر، فتجد العصرية تتدثرُ بحنين الماضي، حيث المباني القديمة التي تُنافسُ في جودتها أكثر الفنادق والعمارات جمالاً.

البدايةُ مبهجةٌ، فمصر مشبوبةٌ بطباع خاصة، ولا تقلُّ عن باريس في جاذبيتِها، ولم أشعرْ بغُربةٍ، ولكن شعرتُ باختلاف الوسط، فما بين شارع الشانزلزية وشارع قصر النيل، الفارق كبير، اللغات تختلفُ لكن اللهجة هي من تصنعُ الفارق، فما بين تلك اللكنة الفرنسية المائعة .. واللهجة المصرية بونٌ شاسعٌ، إلا أن نوعية العملاء في تلك البقعة في مصر تفهمُ الجمال وتُقيِّمُه، فما لبثتُ طويلاً حتى اقتناني شوكت بيه، وكان أنيقًا بحقٍّ .. في ملابسه وعِطره، يتلذذُ باختيار الكرافتة التي تناسب ملابسه، فدولابه مرتعٌ لأنواع الكرافتات المختلفة بكل الماركات العالمية

لا بُدَّ أن يعتريك التشتتُ وعيناك تستعرضان الكرافتات ما بين الصوف والحرير والجلد والقطن والبوليستر، تشكيلةٌ عجيبة كأنك في محلٍ متخصصٍ للكرافتات فقط، تتنوعُ الموديلات ما بين القصير والعريض والرفيع...

□□□ □□□□□1.indd 139 1/17/18 8:07 AM

إلا أنني كنتُ صاحبة حُظوةٍ، فقد اقتصرَ ارتداؤه لي مع بدلته السواريه الكحلي، متفنِّنًا في أن يُغرقني ببذخٍ بعطرِه الثمين.

-إيه رأيك؟

-رائعة .. كم أنتَ دائمًا تسحرني بذوقك الرائع وانتقاءاتك المذهلة!

-شاهدتها مُصادفةً في فترينة المحل، فلم أقاوم سحرَها، خاصة وهي تواكب الموضة.

-أنت كفيل بصنع موضة تخصُّك يا حبيبي، فلم أرَ مثيلاً في أناقتك، لكني أغارُ من تلك الأناقة.

-حسنًا يا روحي، إذا لم تعجبك فسأهْمِلُها تمامًا.

-لا بالطبع، ولكنك تجعلني أنا من يدفعُ ثَمنها بغيرتي لتكون قربانًا لغرامي بك .

وهكذا تم دخولي بيت شوكت بيه برضا صابرين هانم، فكان شوكت بيه يحرصُ على أن يرتديني في مناسباته الخاصة، فيقف أمام المرآة بتأنٍّ .

يُصيبُني بالدهشةِ بمُحاولاته المتكررة في ابتكار ربطةٌ جديدةٌ، فتارةً إنجليزية، وتارةً إسبانية، يَمكُّني ويربطني مراتٍ عدة حتى أُوشك على الملل، وما يلبثُ أن يعود إلى ربطته الأولى خوفًا من ضياع الوقت، مغرمًا بالأناقة والتجديد، فما تظهر ربطةٌ جديدة

□□□ □□□□□1.indd 140 1/17/18 8:07 AM

حتى يسارع لتعلُّمِها مُنفِقًا الساعات في تجربتها حتى الإتقان، ذوقه راقٍ في اختيار الألوان، له نظرةٌ فنانٍ في تَناسُقِها، فاختياراتُه مُبهرةٌ، فالبدلةُ السوداءُ لا يُظهِرُ أَلَقَها إلا قميصٌ أبيض مُقلَّم، ولا يزيدُها بهاءً إلا تلك الكرافته الحمراءُ كحسناءٍ يافعةٍ تتدللُ غرامًا، أما الكرافتة الكحلية ذات النقاط البيج فهي الملكة المُتوَّجة على البدلة التكسيدو البيج حيث يتناغمُ معها القميص السماوي كلوحةٍ فنيةٍ.

-مش معقول يا شوكت، لابس رايح فين؟

-نفس السؤال التقليدي يا صابرين!

-طبعًا، لازم اعرف الشياكة والأناقة دي لمين؟

-وبعدين معاكي..

-أنا برضه! كل يوم تخرج لوش الصبح وتقولي بعدين معايا؟

-وأنا مش هاضيع اليوم على نقاش بيتكرر زي اسطوانة مشروخة كل ما اخرج أسمعها، أنا خارج، سلام.

لا يَعيبُ شوكت بيه إلا غرامُه بالنساء وشَغفُه بنظراتهنَّ المشتهاة، بلهفتهنَّ عليه، وهنَّ يرين فيه فتى الأحلام، فملامِحُه وسيمةٌ، مَمشوقُ القوام، وله وجاهَةٌ اجتماعيةٌ جاذبةٌ، ولسانه لا يذْرفُ إلا شهدًا فلا تجد امرأةٌ تحادِثُه إلا وقد وقعت في شِباكه.

□□□ □□□□□1.indd 141 1/17/18 8:07 AM

الموسيقى الراقصة تنساب كيراقاتٍ تشقُّ طريقها للطيران للمرة الأولى، على دقات قلب هايدي، وهي تتخفى خلف الباب تترقَّبُ وقع الأقدام على السُّلَّم .. وكلما اقتربت الخطى هفا معها قلبُها، نمطيةٌ واضحةٌ تصاحبُ خطوات واثقةٍ أمام الباب

مع فتح الباب فوجئنا بإطلالةٍ ساحرةٍ لهايدي أتْبعتها بقبلاتٍ ساخنة لا تدري مُستقرَّها، ما لبثت أن أمسكت به وساقته إلى مُرادِها دون حولٍ منه ولا قوةٍ.

السهرُ لوش الصبح ديدان شوكت .. يُغازلُ هذه ويُداعِبُ تلك، والجميلة السمراء ذات الخفر في عينيها تتخذني طوقًا تجرُّه به إلى غرفتها، والشقراء تتفنَّنُ في جعلي قيدًا لمعصميه. فكنتُ رفيقته إلى ملذاته، يستبشر بي ويرى فيَّ الفألَ الحَسَنَ.

إلا أن حرصه عليَّ، استفزَّ زوجتَه، فشبَّ العداء بيننا، فما إن تعرِفُ نيَّتَه في ارتدائي حتى يجنُّ جُنونُها، فتَبْرِمُ ذهابًا وإيابًا .. تُبرطمُ بكلماتٍ متسارعة

إلى أين سيذهب؟ مَنْ سيُقابِلُ؟

ما سِرُّ هذه الكرافتة التي ما إن ارتداها حتى رجع منتشيًا جَذِلاً؟

وأصبح مجرد ذِكر اسمي يُورثُ الخِلاف في المنزل، فالسيدة صابرين تراني وجهَ شُؤمٍ، فما إن اقتناني حتى انحلَّ سلوكُه وانحرفَ!

□□□ □□□□□1.indd 142 1/17/18 8:07 AM

وهو يراني تميمة حَظٍّ، فأنا سببُ سَعْدِه وهناهُ، ويربط وجودي بالكثيرات من النساءِ الفاتنات اللاتي وقعن بشباكِه، وأنا مُحمَّلة بأوزارهنَّ، متشظية بين تقديري لمشاعرها وإحساسي بالذنب، ونِقمتي على شوكت في إسرافه في اللهو.

وفاضَ الإناءُ بما فيه، فاستيقظتُ على صراخ يَؤُزّ البيت أزًّا، صابرين هانم تصرخُ بحُرقةٍ، وشوكت بيه يحاورها مُحاولاً إرضاءها تارةً بالتنازُل وأخرى بالتبرير، يُذكِّرُها بقصة الحب التي جمعتهما، وهي بين اللوعة والحنين، صوتها يتأرجَحُ رجاءً وصُراخًا، فتقذف كل ما تجده في طريقها مُهرولةً إليه

يَستجديها، فتطيشُ ضرباتُها على صدرِه، ثم ما يلبث أن يحتضنها حتى تُنْكِرَ عليه فعله فتبعدَه، فيحومُ حولها فتجهضُ محاولاته باحتوائها بالصراخ في وجهه ممسكةً بدليلِ إدانته، وقد تعلَّق شيءٌ من روح إحداهن علي،

يتلعثمُ، يُراوغُ، يُتذكَّر أي حجةٍ تُعينه على الفَرارِ من قبضة اللوم فلا يجدُ، وزوجته كالطيرِ المذبوح، هائمة بين دلائل تُثبتُ خيانته وثقة ما فتئَ يُغذِّيها ويتعهدُها

فما تدري أغافية كانتْ أم مخدوعةٌ

ودار رَحَى النقاش بين لائم وملوم حتى هدأت الأمور واستقرَّ الفؤادُ المَكلوم بتعهُّداتٍ عدةٍ منها بالتخلص مني بعد أن نالني سيلٌ من الشتائم الصريحة والمُبطَّنة.

□□□ □□□□□1.indd 143 1/17/18 8:07 AM

أرأيتَ ظُلمًا وعُتوًّا كهذا؟

ما لي أنا حتى أُطردُ من الجنةِ مرتين؟ ما ذنبي إن كان صاحبي مُتلوِّنًا، زير نساء؟! ما الوزر الذي فعلتُه حتى أُطردُ؟!

قامت صابرين هانم بوضعي في كيس بلاستيكي بجوار القمامة، انتهى بي مقامي إلى القمامة! يا لعزيز قومٍ أذلته الظروف!

وفي المساء أتى عمّ محسن يتفحصُ القمامة، واكتشفني، وبعد أن قلَّبني يمنةً ويسرةً، وكان فيَّ من الزاهدين، استقرَّ رأيُه على أن يُحضرني لأبنائه عسى أن يستفيدوا مني بشيءٍ، واستكمل مِشواره بعربته الكارو[1] متجولاً بين أكوام القمامة ينتقي من هذه، ويُغرْبِلُ تلك، حتى اختصَّ نفسه بمجموعةٍ من المُقتنيات تنوَّعت ما بين طشت بلاستيكيٍّ، وبابور جازٍ مفوت[2]،ومخدة مبقورةٍ في بطنها وكراكيب أخرى لا تُسمِنُ ولا تُغني مِنْ جوعٍ.

وَصَلَ عمّ محسن إلى المنزل، فكانت خنفرة حِصانه كجرس الإعلان عن عودته، خرج أبناؤه يهلِّلون بقدومه.

-طلعت، عنتر، نزلوا الحاجات من على العربية. .

وما إن شاهدني طلعت حتى اختلط عليه الأمر بين كوني حبل غسيلٍ أو حزامَ بنطلونٍ، فأخذ يتمنطقُ بي، ثم ما لبث أن عَزَفَ عني وألقاني على الأرض، وأخذ يعبثُ في الكراكيب ليجد ما يَملأُ

١-عربة خشبية يجرها حصان.

٢-خربان.

□□□ □□□□□1.indd 144 1/17/18 8:07 AM

عينه ويتضحُ وجه الاستفادة به.

تلقتني عينا طفلة مُشاكسة، عيناها غنيتان باللعبِ، شعرها مُجعَّد منكوش كلوحةٍ سيريالةٍ "لـ جاك لوي ديفيد"[1]، تُنافس بهيئتها لوحته "موت سقراط"[2] وقد تدلَّى مخاطُها من أنفها في منظرٍ مُقزِّزٍ، وقبضت عليّ، وعيناها تتفحصانني لمعرفة مَنْ أنا وما وظيفتي .

-شادية .. إنتي يا بت ..

سيبي الزفت ده وتعالي هنا بسرعة..

-"زفت!" على آخر الزمن يُقال عني أنا "زفت!"

صوتُ قدمي عنتر على الحصيرةِ المصنوعة من الخوص كصوتِ عظامٍ هشة تتهشَّمُ مع كل خطوة تطؤها قدمه، اقترب مني، وتلقاني وكأنه عرف كُنهي وأصلي .. فصاح بأبيه:

-يا با .. يا با .. إنت جبت البتاعه التحفة دي منين؟

ظَلَّ عم محسن ممسكًا بالقُلة، يصُبُّ الماء على دفقاتٍ يسيل سرسوبٌ منها على ذقنه وعُنقه كأنما يغتسلُ من عناءِ الطريق ..ثم وضع القُلّة على الحامل ومسح بكم جلابيته فمه وذقنه ..

لافظًا الكلام كأنما يختزنه ليخرج مرةً واحدةً:

١- فنان فرنسي من أبرز فنانين المدرسة الكلاسيكية.

٢-لوحة من لوحات الفنان جاك لوي ديفيد.

□□□ □□□□□1.indd 145 1/17/18 8:07 AM

-البتاعه .. أي بتاعه .. تقصد؟ دي؟ .. أاااه لاقتها في كيس جنب الزبالة، هي دي بتاعة إيه يا عنتر؟

أخذني عنتر ووقف أمام مرآة طويلة بإطارٍ ذهبي عتيق، وقد كُسِرَ حرفُها وهَجَرَها الإطارُ في بعضِ أجزائها، وأخذَ يلفُّ الكرافتة حول عنقه، دون ربطِها، ثم يرجعُ إلى الخلف عِدةَ خُطواتٍ ليرى نفسه، والظاهر أن السيد عنتر وَقَعَ في غرامي، وقد حاولَ مراتٍ عديدةً أن يربطني فما نَجَحَ إلا في أن يجعلني أرثي لحاله.

ثُمَّ دَقَّقَ فيَّ قليلاً وقد شاهد بقايا الروج الأحمر ملتصقة علي، فمطَّ بشفتيه متحسرًا

-أيوه دي جرافتة الليالي الملاح والسهر لوش الصبح.

أوعز عنتر لزوجته بأن تغسل الكرافتة، ويا للهول! كدتُ أن أسقطَ صريعةً في طشت الغسيل الألمونيوم مع مزيج من البطاس[1] والإيريال حتى فَطِنَ عنتر، فطلب أن أُنَقَعَ في الماء فقط، وبدأت رحلتي في دولاب عنتر المليء بالملابس البالية، لا يوجد كرافتة واحدة إلا .. "أنا"

لكني كلي ثقة أن عنتر سيعرفُ قيمتي وسيُقدِّرُني كما أستحقُّ.

-اخرسي بقا .. كل ده كلام كلام .. صدَّعنا.

-ما يُضيرُكم أن أتحدث، أن أفضِفِضَ، كلكم بقايا ملابس قديمة،

١-مادة مبيضة للغسيل.

□□□ □□□□□1.indd 146 1/17/18 8:07 AM

تتفاوت الرُّقع في أجسادِكم، وبُقع الألوان تتجلَّى كالمصابين بالبُهاق.

قاطعها صوت أحدهم:

-ستُجرِّبي البهاق مع أول غلسةٍ مع البطاس يا مغرورة.

-دعك منهم..

بدأ عنتر يتأنَّقُ عندما يقوم بارتدائي، فساق الحظُّ له بدلة كحلية كالجديدة .. ماذا؟ إنها بدلة شوكت بيه أيضًا!

واشترى قميصًا أبيضاً رائعًا، وغدا يمشي في شوارع وسط البلد مُعلنًا خروجه من هُويتِه إلى هُويةٍ جديدة .

حتى استهجنَ الجميعُ ذلك، وعلى رأسهم زوجته "مُهجة"، فعاد عنتر من سهرتِه اليومية ببدلته وقد أعياه اللَّفُّ في الشوارع، فنزع عنه البدلة والكرافتة ورماها جانبًا ..وطلب إلى مُهجة أن تسخنُ له المياه ليغسلَ قدميه

أشعلت مُهجة البابور على حلّة المياه الساخنة، وقد استبدَّ بها هاجسُ حال زوجها، وكيف تغيَّر بعد هذه الكرافتة الشؤم التي بدَّلت حاله من حالٍ إلى حال .

تدفق البابور بحرارة النار لتسري الحرارة في أنحاء الحلة، المياه على وشك الغليان، صاحت مهجة:

□□□ □□□□□1.indd 147 1/17/18 8:07 AM

-شادية إلحقيني بقماشة أمسك بيها الحلة بسرعة يا بت ..

بحثت شادية بسرعةٍ فلم تجد سوى تلك القماشة الصغيرة التي ما زالت لا تفهمُ وظيفتها

القماشة الصغيرة ..

ما إن رأتها مُهجة حتى اتخذتني قُربانًا لغسل قدمي عنتر وسلوكه، فما عبئت بالنار تُمسك جسدي وأنا ألتوي وأُزوي حتى انتهى إلى سمعي ردُّها على عنتر عند سؤاله عني:

-وماله يا حبيبي

خدت الشر وراحت!

□□□ □□□□□1.indd 148 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 149 1/17/18 8:07 AM

□□□ □□□□□1.indd 150 1/17/18 8:07 AM

الغيم الأسود

لا تكادُ تَرى عقاربَ الساعةِ الا "طشاشاً"، يجاورُها صورةٌ أبيض وأسود بإطارٍ ذهبيٍ للرئيسِ السابقِ محمد نجيب طوّس الزمن ألوانه، تصْطفُّ تحتَها صناديقُ المياهِ الغازيةِ الزجاجيةِ وقد علاها العفْرةُ، وفوقَها رفٌّ خشبيٌّ مثبّتٌ على كوابلِ حديديةٍ لازال يحتفظُ بلونِهِ الاسودِ وإنْ تقشَّعَ الدهانُ لِيُبْدِيَ سَوءةَ الحديدِ ظاهرةً للعيانِ، يقبعُ عليها راديو خشبيٌّ متهالكٌ, وقد أضحى رمزً لزمنٍ جميلٍ مَضىَ ...

1.indd 151 1/17/18 8:07 AM

الساعة الواحدة فجراً .. لا شئَ يُعبِّرُ عن الوقتِ الإ ساعةٌ رخيصةٌ غبَّشَ زجاجَها دخانُ المعسلِ وتَخْمش من جرّاء سقوطِها مراتٍ عديدةً وقد ثبِّتتْ في منتصفِ الحائطِ مائلةً .

لا تكادُ تَرى عقاربَ الساعةِ الا"طشاشاً "، يجاورُها صورةٌ أبيض وأسود بإطارٍ ذهبيٍ للرئيسِ السابقِ محمد نجيب طوّس الزمن ألوانه، تصْطفُّ تحتَها صناديقُ المياهِ الغازيةِ الزجاجيةِ وقد علاها العفْرةُ، وفوقَها رفٌ خشبيٌّ مثبَّتٌ على كوابلِ حديديةٍ لازال يحتفظُ بلونِهِ الاسودِ وإنْ تقشَّعَ الدهانُ لِيُبْدِيَ سَوءةَ الحديدِ ظاهرةً للعيانِ، يقبعُ عليها راديو خشبيٌّ متهالكٌ، وقد أضحى رمزً لزمنٍ جميلٍ مَضىَ .

تَخَللَ دهانَ الجدارِ تشبيحاتٌ صفراءُ تدلُّ على زمنٍ انقضىَ، فتَركَ آثارَهُ على الدهانِ الزيتيّ.

هناك في زوايةِ القهوةِ؛

تزامَلَ ثلاثةُ اشخاصٍ في طاولةٍ، وقد إقتربَ أحدُهم من رأسِ الآخرِ هامساً:

-بس لا... أنا كده مش أخذت حقى .. مش ده اللّي اتفقنا عليه !

رَجَعَ الآخرُ برأسِه إلى الخلْفِ وأسندَ ظهرَه على الكرسِيِّ مُلوِّحاً بذراعِه وقد رَفعَ صوتَه:

□□□ □□□□□1.indd 152 1/17/18 8:07 AM

- "هو كده .. إذا كان يعجبك .. وده اتفاقنا الجديد أيه رايك ..؟"

ضاقت عَيْنا الجالسِ أمامَه،

- " لا طبعا مش موافق... حقى فين ؟"

"يعنى إيه حقك .. حقك وصل وانتهى"

"يعنى إيه، أنا اتنصب عليَّ .. "

فجأة ...

لَمَعَ نصْلُ مطواةٍ[1] "قرن غزال" في الهواءِ بسرعةٍ وبحركةٍ استعراضيةٍ قامَ الثالثُ بتمريرِ المطواةِ علَى وجهِ الجالسِ أمامَه مكرِّرًا نفْسَ الجملةِ

- "هو ده اتفاقنا الجديد إذا كان عاجبك ؟ إيّه قولك بقا ؟"

بلعَ الأولُ ريقَهُ بصعوبةٍ وقد شَخُصَتْ عيناه وشحبَ لونُه متهتهاً :

- "يعنى إيه ...

يتنصب عليا

عينى عينك ...

طيب والله "

١-سكين.

□□□ □□□□□1.indd 153 1/17/18 8:07 AM

مَدَّ الشخصُ الثاني يدَهُ ليُمسِكَ معصمَ الأولِ بقوةٍ مُوَجِّهًا نظرَهُ إليه قائلا بصوتٍ هادئ:

-"إنتهينا يلا بينا يا رضا" .

سَرَتْ قشعريرةُ غضبٍ في جسدِ رضا، وقد صَبغَ الغضبُ ملامحَهُ وبرزتْ عروقُهُ وكأنما الشيطانُ ينزغه ليقتنص حقه في غياب تكافؤ القوى .

هَمَّ رضا بأن يُمسِكَ بتلابيبِ الأولِ؛ إلا إنَّ نصلَ المطواةِ الذي غزَّ جنبَه جعلَه يتراجعُ ويراودُ نفسَه عن ذلك، وشيَّعَهُ الأول بنظرةِ شماته مع ابتسامةٍ ساخرةٍ، قائلاً باستهزاءٍ:

"ما ياكلها الإ الشاطر يـا ... يا شاطر"

خرج رضا وقد تسرّبلتْ الدنيا بالظلامِ في عينيه، يَرْجِلُ صدرُه كمصنعِ فحمٍ، ركِبَ سيارتَه الأجرة ودلفَ زميلُه عن يمينِهِ في صمتٍ وكأنَّ الأمرَ لا يعنيه يتأمَّلُ الطريقَ في برودٍ.

ماهي إلا لحظاتٌ وبدا على رضا الاضْطرابُ وهو يبْحثُ عنْ عُلبةِ سجائرِهِ ويداهُ تنتهِكُ حرْمَةَ السيارةِ، فتكْشِفُ كلَّ مستورٍ ينافسُ سرعتَها زفراتُ صدرِه وقد قضَى وقارُها وبلغَ الصبرُ الحلقومَ

-"ووف هي فين ... ده وقته ده ؟!"

□□□ □□□□□1.indd 154 1/17/18 8:07 AM

التقطَ زميلُه علبةَ السجائرِ الواقعةَ علىَ أرضيَّةِ السيارةِ ليناولَها لهُ بِوُدٍ ظاهرٍ :

- "دخّنْ يا صديقي لا تجعلُ الموقفَ ينكِّدُ عليك حياتَك .."

- "إنت بتقول إيه ..؟"

كيف وقد اغْتُصِبَ حقي وقُهِرْتُ دونِ وجْهِ حقٍّ، ألمْ تَرَ ماذا فَعَلَ معيّ ؟

وأنت ...نعم أنت .... لماذا لمْ تتدخلْ ؟ لِمَ لَمْ تَشُدَّ أزريَّ ؟ أيُّ صاحبٍ أنت ؟!

-يا صديقي بعضُ المعاركِ الانتصارُ يتحققُ بالهزيمةِ، ويتكلَّلُ الفوزِ بالانسحابِ، وأنا لم أتردّدْ أن أشدَّ أزرَكَ وأنصرَك بأنْ دفعتُ عنكَ بلاءَ المطواةِ وشبحَ عاهةٍ مستديمةٍ تحْفرُ وجهَكَ أو يرتسِمُ بها مَعْلَمًا على جسدِكَ

وبعد ذلك لازِلْتَ تناشِدُني النُّصرةَ!

نَفَثَ رضا دخانَ السيجارةِ كغيمةٍ رماديةٍ ملأتْ السيارةَ، وأطرقَ صامتاً.

قَطَعَ الصمتَ، همهمةُ صديقهِ ورأسُهُ يراوِحُ بين الشبَّاكِ عنْ يمينِه ووجْهُ رضا عن يسارِه .. وهو يُتَمْتِمُ:

- "زبون على الطريق .. أليس كذلك؟".

□□□ □□□□□1.indd 155 1/17/18 8:07 AM

انْظرْ .. هُناكَ سيدةٌ على الطريقِ .. يَمِّمْ وجهَك نحوَها...

ها هو الرزقُ جاءَك يسْعَى...

ارتسمَ شبحُ ابتسامةٍ خفيفةٍ على وجْهِ رضا واتَّجهَ نحوَ السيدةِ وتوقفَ لِيُرْخِيَ صديقُه الزجاجَ ويُنادِيها :

-إلى أين ؟

-المعادي ..

-"مش طريقي، لكن علشان خاطرك نتجه إليها .. تفضلي."

التفتَ قدري إليها مخاطباً:

-أترغبينَ بالركوبِ في الأمامِ ؟

ردّتْ المرأة لا .. كما أنت.

ثم أعقبَ حديثَه:

-"هتدفعي كام ؟"

"المشوار ده مش أقل من .."

قاطعه رضا:

-"ما تدفعينه، لن نتَشرّطُ على الزبون كمان".

□□□ □□□□□1.indd 156 1/17/18 8:07 AM

إبتسمتْ المرأةُ ودَلفَتْ إلى السيارةِ، حددَ رضا وجهةَ السيارةِ إلى عنوانِ السيدةِ وما كادَ يتحركُ بضعةَ أمتارٍ ..

حتى جاءَ صوتُ السيدةِ طالبًا الوقوفَ على جانبِ الطريقِ، فقد لَمَحتْ سيارةَ قريبٍ لها في الجوارِ،

طالعَها قدري من مرآةِ السيارةِ، ثم التفَّ بجذعِهِ

-ولكننا تَحركْنا بالفعلِ ..

أجابتْ: لمْ نتحركْ ولكنَّك هَممتَ، والفرقُ كبيرٌ يا أسطى..

صاحَ قدري بصوتٍ جهوريٍّ:

-هذا لا يصحُّ لقدْ توقفْنا لكِ فلابدَّ لكِ أن تُحاسبينا على الأجرةِ كاملة، ليس من ذنبِنا إنكِ وجدتِ سيارةً أُخرى ..

نظرتْ إليهِ في المرآةِ من أعلى إلى أسفلِ، وتركتْهُ دونَ ردٍّ، و قد تَمنْطَقتْ الترفُّعَ.

التفتَ رضا إلى صديقِهِ متنهداً:

-ألم أقلْ لك يا صديقى .. "أنا فقري؟"

الرزقُ يعافُني، حتىَ إذا أَطَلَّ عليَّ بوجهِهِ فكأنما ...

تمتمَ قدري في بطءٍ وهدوءٍ ..

□□□ □□□□□1.indd 157 1/17/18 8:07 AM

-خير.. لابد إن ذلك خير.

-أيُّ خيرٍ في أنْ أظلَّ فقيراً مُدْقِعاً، تتكاثرُ الأقساطُ عليَّ كما تتكاثرُ السباعُ على الفريسةِ!

أيُّ خيرٍ في أنْ لا أجدُ الكفافَ لعفافِ نفسي وأسْرَتي وأنْ تحاصرَني الديونُ كشخصٍ تعلَّقَ في ناطحةِ سحابٍ أو أحاطَ به السيلُ من كلِّ جانبٍ حتى كادَ أن يغمرَه!

العوزُ مُرٌّ يا صديقي، الفقرُ الذي يجعلُكَ تُغالِبُ نظرةَ الحِرْمانِ، بأنْ تستحضِرُ كلَّ لحظاتِ الرضا في حياتِك كشريطٍ متوالٍ من مسلسلٍ قصيرٍ جداً، لا تفْتأُ تنتهي صورِهِ قبلَ أنْ تبدأ.

التفتَ إليهِ صاحبُه مستنكراً:

-أنت قلتَها يا صديقي:

الرضا .. إنَّ كلَّ مشكلتِك في الرّضا، أنتَ ناقمٌ على ما لديْكَ ومتطلِّعٌ لغيْرِه ؛ ليكُنْ لكَ نصيبٌ من اسمِكَ، فأنتَ لا تُعيرُ ما في يديكَ الاهتمامَ، لأنَّ كلَّ طموحِك ورغبتِك في غيرِه

أنتَ في نظري كقصَّة الشخصِ الذى حَظِىَ بالدنيا وهو لا زالَ معلقاً بأكلةِ كبابٍ عند جارِه.

فرّمَلَ .. قدري سيارتَه بحدَّةٍ، وكأنما بهتَهُ التشبيهُ؛

□□□ □□□□□1.indd 158 1/17/18 8:07 AM

-"أيُّ أكلةِ كبابٍ!؟ التي تتحدثُ عنها، وأيُّ حظٍ من الدنيا ذلك الذي نعمتُ به".

أنا لا أتذكرُ يا صديقي أنَّ الغنى أطلَّ بوجهِهِ المشرقِ على بيتِنا، أنتَ تعرفُهُ ذلك البيتُ المتهدمُ الذى جاز لنا بعدَ وفاةِ جدتى لوالدِي، ولولا - توفيقُ اللهِ - لَكُنَّا الآن نعيشُ في الشارعِ، بيتٌ قديمٌ متهالكٌ من أيامِ الملَكية تجاوزَ عمرُه المائةَ عامٍ، تسري فيه الرطوبةُ والزمنُ، ليخيَّلُ لكَ أنك في فيلمٍ يدشَّنُ لبدايةِ السينما، وكان حظنا من معاشُ والدي الذى أفنىَ عمره في شركةِ الغزلِ والنسيجِ بضعِ جنيهات - لا تُسْمنُ ولا تُغنِي مِن جُوعٍ -.

وأمِّي التي انكفأَ ظهرُها تبيعُ من نافذةِ المنزلِ بعضَ المناديلِ ولوازمَ المنازلِ؛كبابٍ للرزقِ، "وأهي نواية تسند الزير"[١]

أنتَ لستَ بغريبٍ يا قدري .. فعائلتُك تُلازِمُ عائلتَنا ولكنْ و كأنما قدْ فاضَ الإناءُ من القدرِ، ولم أعدّ اتحملُ رائحةَ الفقرِ، ولونه وطعمه .

تحدثَ قدري بصوتٍ هادئٍ

-لكن الرزقَ ليس كله مالٌ.

فقاطعه رضا .. أنا لا أطلبُ المالَ للتبخْترِ أو الفشْخرة، بلْ لسدِ العَوز.

١- مثل شعبي مصري يعني شيء قليل يعين.

□□□ □□□□□1.indd 159 1/17/18 8:07 AM

كان رضا يتحدث وقد أطلقَ نظره خارج السيارة، دون أن يلّتفتُ إلى قدري.

ما لبث أن أطفأ سيجارته، ليقومَ بالتقاط سيجارةً أخْرى من علبةِ السجائر، متأملاً سحابات الدخانِ تتصاعدُإلى السماءِ، كأنما روحٌ أُعْتِقت من سجنِ الجسدِإلى آفَاقِ الحريةِ السماوية،

-هل تعرفُ يا قدري إن الفقرَ يغطي فضيلةَ الفقراءِ، بينما يسترُ المالُ رذيلةَ الاغنياءِ، نحن في عالم لا يؤمن بك الإ إذا كنت مسنوداً، ولا يُعيرِيك اهتماماً إلا إذاً أنعمَ عليك بكرتِ توصيةٍ، أو تليفون وصايه...

-ولكن يا رضا .. تَذكّرُ نعمَ الله الأخرى عليك.

- أرجوك دعْ عنك ذلك، أنا لا أُنْكَر أنعمَ الله عليَّ في صحتي وأهلي وأصْدقائي، لكن ذلك لا يمنعُني أن اسألَ بكلِ حرقةِ حول ذلك التوزيع اللا عادل للثروةِ!

أين العدل في أن يحكمَ بلدً عريضاً عددٌ محدودٌ من العائلات؟!

أين العدل في أن تبلغَ ثروة ثلاثة من أغنياءِ هذا العالم نتاج قيمةِ دخلِ مجموعة من الدولِ مجتمعةً!

أين العدلُ أن نجدَ أناساً لا تجد ما تفعله بمالِها وآخرون لا يجدون ما يسدُ رَمَقَهم ؟!

□□□ □□□□□1.indd 160 1/17/18 8:07 AM

يا صديقي ...

العالمُ اليوم أصبح جزيرةَ أغنياءٍ يُحيطُ بها بحارُ الفقراءِ.

-هذا نصيبهم من الدنيا يا رضا .. ولكل مجتهدٍ نصيب.

قهقه رضا بصوتٍ عالٍ، ثم فتَحَ بابِ السيارة ونزل منها وقال ..

-هذا كلام من سلموا عقولَهم للفضائياتِ، تبثُّ فيها ما تشاءُ، الأمرُ ليس له علاقة بالحظ بلّ علاقته بالطمعِ و الجشعِ والتنافسِ على احتكارِ الثرواتِ، وما تَبِعَ ذلك من انظمةٍ تمنحُ المستغلين والمحتركين فرصةً لزيادةِ أموالهم، واستغلالنا نحن لنكونَ عمّال تراحيل، تارةً باسمِ النصيبِ وتارةً بإسمِ القدرِ.

-ولكن هذا نظيرُ اجتهادهم ..

-أبداً نظيرُ علاقاتهم.

-نظير اجتهادهم وعلاقات ذويهم، هكذا الدنيا يجبُ أن تتركَ لأولادك ميراثاً يستندون إليه .

رمى رضا السيجارة وضرب كفاً على كفٍ قائلاً:

-لا حول ولا قوة الا باللّه- هذا ميراثٌ من الغباءِ والسطحية والتدجين يا قدري، لو وُزِعتْ هذه الثروات لم بقي فقيرٌ في العالمِ إن خيرات اللّه وعطاء السماءِ كفيلان بأن يجعلوا العالم في فيضٍ من العيشِ والسعةِ.

□□□ □□□□□1.indd 161 1/17/18 8:08 AM

قطع حديثهم صوت صريرِ فرامل سيارةٍ فارهةٍ تتحركُ بسرعةٍ لتتجاوزَ المارة غير عابئة بانتشارهم المتناثرِ على قارعةِ الطريقِ.

-"بالراحة يا عم .. انت ما بتشوفش.. "

"ماهو أكيد امك اللي شرياهالك"

أعقب ذلك صوتُ المكابحِ وهي تأنُ تحت وطأةِ الوقوفِ المفاجئ، كادتْ لتصدمَ أحدهم، همَّ أحد الشباب بالرّكضِ نحو السيارةِ ذي الزجاجِ الاسود ليُخبّطُ بكفِه على جسم السيارة زاعقاً بصوتِه ..

-"أنت أعمى ما بتشوفش .."

تراجع السائق إلى الخلفِ، وأخذ يشْتمُ ويَسبُ، ثم انْحرفَ ليأخذَ طريقه مرةً أخرى مسرعاً.

كان المشهدُ سريعَ التفاصيلِ، مجرد ما أنْ تجمّعَ الناسُ ...أنفضوا.

إلتفت رضا إلى قدري قائلاً:

-هذا مثالٌ واضحٌ يؤكد نظرتي يا صديقي .. أتعلمُ أين الخلل في ذلك ؟

- لا أعلمُ ..

-الخطأ في الخلفيةِ التربويةِ في عالمنا التي تجعلُ الناس تجنحُ في تربيةِ أبنائها على الأنانيةِ والذاتيةِ، فينتجُ جيلٌ منعدم الإحساسِ بالآخرِ.

□□□ □□□□□1.indd 162 1/17/18 8:08 AM

يعتبرون الباقين حشراتٍ أو كائنات اختارها -اللّه عزوجلَّ- لخدمتهم، ويعدُ حق التميزِ هو شغلهم الشاغل .. فتراه يختصرُ العالمَ في نفسِه فحَسبْ.

-أرى إنك مارست نفس ما تدّعيه للأخرين من تسلطٍ ، فأنت لا ترى من الرأي إلا رايك!

فكيف تنتقدُ الآخرين على ديكتارويتِهم وأنت تمارسُها في حياتك ومفاهميك !؟

إنك تُطلِقُ الأحكامَ والتفاسير على رسْلِها دون أن تسمحَ لأحدِ بالنقدِ، وكأنما كلامك أحكامٌ مصدقة لا مجال فيها للاستئنافِ أو النقضِ.

لا تُسلّم نفسك للغيمِ الأسودِ في طريقةِ تفكيرك، وتنْغلقُ على مفاهيمك وحسب.

-أتذكر يا قدري القصة التي كنا نقْرأها ونحن صغارٌ، عن تلك القريةِ الصغيرة التي أبدعها الرجلُ المهمُ، يُسرّبلُها الحزنُ في عباءةِ البؤسِ، وتطلُ عليها الكآبةُ في كل ملامحِها، فالشوراع شاحبةٌ والأصوات مكتومةٌ، واجمه، والأرضُ كالحةٌ غضباً، وقد أعتادوا كل يومٍ أن يقفوا في الطوابيرِ خانعين، في انتظارِ ما تجود به يد المشهورِ من منحٍ وهدايا، ممثلة تارةً في كليو جرام من الأرزِ أو السكرِ أو عبوةٍ من زيتٍ أو أكثر، بينما تثمرُ الأرضُ بالخيرِ وتغدقُ السماءُ بالفضلِ.

□□□ □□□□□1.indd 163 1/17/18 8:08 AM

فيأتى الرجلُ المهمُ ليعلنَ إنه رئيس الفقراءِ وإنه خرج من رَحمهِم، وإنه ترأسهم لأنه يشعرُ بهم، والوحيد القادرُ على انتشالِهم والرفع من معاناتهِم .

وبدأ الرجلُ المهم خطّته ..

ليُعينَ الفقراءَ، ويأخذُ من الأغنياءِ ويحاربُ الفساد، وتظهرُ الأيام ما أضْمَره ويسقطُ عنه قناع علاء الدين، ليظهرَ بزي شَهْبَنْدرِ التجارِ، فتَحوّلت البلدُ إلى سوقٍ لتجارته، وتحولت رئاسته إلى جنةٍ لأحبائه ونارٍ لأعدائِه، وانْطلَقت المشاريعُ في كلِ حدبٍ وصوبٍ تدعمُ الرجلَ المهم، ويغردُ الإعلامُ باسمِ الرّجلِ المهم، وتَحولت القريةُ بإسرِها لأحد أملاك الرجلِ المهم.

وتحول الناسُ من أحرارٍ إلى عبيدٍ، ومن مخدومٍ لخادمٍ، يرّجون ودّ الرجلِ المهم ويسعون لكسبِ رضاه، وتمّت القصةُ بأنّ الأحرارَ أصبحوا عبيداً وإن الحاكمَ أصبح محكوماً.

ضرب قدري كفاً بكفٍ...

-الآن رجعتَ وأسْقطتَ الأمر بشكلٍ آخر، في استحضارِ لفكرة أنك الآمرُ الناهي، صاحب الفكرِ الصحيح، هذه القصةُ ليست بالضرورةِ تفسيراً منطقياً للأحداثِ، وإنما إشارةٌ لبعضِ مراحل التاريخِ في بيان توزيع الثروةِ.

-قدري .. أرجوك لا أحُبَ هذا الأسلوب من النقاشِ، أنا أطرحُ

□□□ □□□□□1.indd 164 1/17/18 8:08 AM

عليك رأيّي، فلا تدّحضُه بالسخريةِ وابتكار أساليب لعدمِ الردِ المباشرِ على الأمرِ.

قاطعهم متسولٌ يلبسُ جلابيةً مُهلهلةً، ويمسكُ بولدٍ صغير يطلبُ الرّزقَ...

-"حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة، ساعدني الله يساعدك، معايا ثلاثة أولاد غيره، والحياة غالية وكل حاجة مولعة زى ما انت شايف"

أخْرجَ رضا بعضَ جنيهاتٍ من جيبِه وأعطاها إياه بعجلةٍ ثم الّتفتَ إلى قدري مشيراً ..

-هؤلاء يا قدري هم ضحايا المجتمعِ، هم زملائُنا في الفقرِ، لذلك نحن أولى الناس إحساساً بهم وتلمساً لاحتياجاتِهم لإننا منهم وهم منا.

-يا صديقي ..

الرزق موفورٌ من الله لخلقِه وأنت في بطنِ أمك، ولو راجعت تاريخَ من تصفهم بالغنى ستجدُ إن منهم أصحاب تاريخٍ من العصامية، عضوا على الترابِ ليصبحوا ما أصبحوا، والأمثلة كثيرة، ولكن لكل شخصٍ منا أسلوبٌ يرتكنُ إليه، هناك من يصرفُ وقته وجهده في ابتكارِ شماعةٍ يعلقُ عليها كل آماله، وهو بذلك مرتاح البالِ، خالي الوفاقِ، فقد وجد مايركنُ إليه ويعهدُ

□□□ □□□□□1.indd 165 1/17/18 8:08 AM

إليه بمشاكلِه ونقصه وهوان إرادتِه.

ومنا من يعرفُ الأسبابَ، ويجتهدُ ليغيرها، ويصنعُ لنفسِه عالماً آخراً، واترك لك الحكمَ يا صديقي في أيهما أنت ..

-أتعلم صدقاً لا أعلمُ!

هل أنت فعلاً صديقي أم أنت قَدَرِّي !

-أني لأرى الفقرَ شخصاً عاهدنا على أن لا يفلتنا، فلا يوجدُ شخصاً واحداً في عائلتنا "عليه الطلى"[1]، وله ذكرى بأن عرف الغنى وعرفه، بل كل عائلتِنا تئنُ تحت لظى الحاجةِ والعوزِ، وكأنما أخذ الفقرُ علينا عهداً وآبى أن يخْلفَه، وقد ورّث عهده لذرّيته وأخذ منهم العهدِ بالتطبيقِ، فتراه يظهرُ لنا في صورٍ مختلفة، تارةً باسمِ الخيرِ وأُخرى باسم عدم الحرصِ، وتارة باسم العوزِ والحاجة، والناتجُ في النهايةِ ...

إننا والفقرُ أصبحنا أصدقاء.

-ضحك قدري على هذا الوصف ..لا أعتقدُ أنّكم أصدقاء

"لكن واخدين بعض عن حب"

١-شخص له وضع.

□□□ □□□□□1.indd 166 1/17/18 8:08 AM

-أتعرف يا صديقى .. كأن كلامك وقعَ في قلبي، فظننتُ في نفسي أحد من تعاهدوا على أن لا يفتوك

-فأصبحت لا أعلمُ .. هل الفقر أنا

أم قدرُكَ!

□□□ □□□□□1.indd 167 1/17/18 8:08 AM

□□□ □□□□□1.indd 168 1/17/18 8:08 AM

غنج تحت الرّدى

كنتُ أتوقّعٌ ذلكَ في أيّ لحْظة، لكنّها لمْ تُمهِلْنى للفرحِ فأصابَني الإحباطُ و تكالبَتْ عليّ ذكرياتٍ شبيهةٍ فهذه ليستِ المرّة الأولَى .. فلمْ أجدْ بُدًا من الرّضُوخِ لرَغْبتِها .. و امتلأ ذِهني بخواطرَ شتّى من بينِها الزواجُ بأخْرَى ..

ααα ααααα1.indd 169 1/17/18 8:08 AM

غزة بيوم الانتصار لغنيها وهنيها

زغرد يا رصاص الثوار

ارض الشهدا وحياها

وغزة هي البداية

والثورة جاية جاية

بالقدس بنرفع رايه

ورح ترجع لاهليها

صوت ميس شلش .. كرذاذِ المطر الذى يُحي القلوب العطشى لفرح الانتصار، كجدائلِ أشعة الفجر التي تَنْبلجُ من عباءة الليل فتشرقُ في أنفسنا بالأمل الذي نتعلقُ به في ثوب الحياة.

-وبعدين باسل قصّر صوت الكاسيت شوي .. مو معقول مو عارفه أدرّس الاولاد !

-شو قصر ...بدنا نعليه أكثر ما نقصر، لو فيني بعليه ليغطي على أزير الطائرات و صوت البراميل المتفجرة ..

-رجاء .. مو وقت ثورة و تحدى، بدّنا نشوف شغلنا اللّه يرضى عليك ..

□□□ □□□□□1.indd 170 1/17/18 8:08 AM

.. نظر إليَّ باسل للحظاتٍ، ورفع صوت المسجل أكثر وأكثر وأخذ يدّبك[1] على أنغام موسيقى أغنية "ميس شلش"[2] كأنه يستعرضُ ما تبقى من رغبةٍ بالحياة داخله، يتخذُ من صوتها سلاحاً يواجه به الموت.

كان باسل مزيجاً من صفاتٍ متباينة متنافرةٍ، فتراه في بعض الأحيانِ أرّعن، يصبغُ التهور أفعاله، و عندما أتأملُ كلامه وأفعاله، يخاتلني التيه بأني رفيقة لحكيم زمانه، لكن الصفة التى لم يختلف عليها اثنين هي رجولته في تَحمّلُ المسئولية، في وقتٍ باتت المسئولية إرّثاً شديد الثقلِ ينْفرُ منه القريبُ والبعيد

الناس تتغيرُ، والقيم أصبحت مرنةً، والأخلاق أصبحت كالحظوظ، فكل يأخذ منها على قدرِ حَظّه ، وجاءتْ الحرب كالمَنْخُل يُغربلُ الناسَ من المظاهر، فتُطرَحُ أقنعتهم، فاقتربت الناس من بعضها وأصبحنا نعرف بعضنا أكثر ..

تداخلت الهمومُ، وامتزجت الحاجات، وتوارى السؤال خلف العِلم بالحالِ.

تصنعُ الحرب فينا ما لا تصنعه ألاعيب كبير السحرةِ، فقدّ يسْبرُ أغوارك بيديه الفارغتين وهو يدورُ حول قفصٍ فارغٍ، يتخلله الهواء من كلِ جانب، وما يلبثُ أن يغطيه ثواني ليكشفُ بعد ذلك عن أسدٍ

١-رقصة فولكلورية شعبية منتشرة في بلاد الشام تمارس في الاعراس والاحتفالات.

٢-منشدة اسلامية فلسطينية تدور اناشيدها حول فلسطين والانتفاضة

□□□ □□□□□1.indd 171 1/17/18 8:08 AM

يزأرُ،أما في الحرب فكل من عاشرتهم وجمعتكم لقمةٌ واحدةٌ تقاسمتموها بينكم؛ تراهم دون أقنعة وقد داسوا على ما اجتمعتم عليه من قبل في لحظةٍ واحدةٍ

وكأنما حلّ يومُ القيامةِ، فترى الجميع يصيحُ نفسي ... نفسي، الحرب تكشفُ معادن البشر، فيظهرُ المعدن الأصيل لامعاً كألماسةٍ بكْرٍ وسط زَخَمٍ من كسر الصخور، وتكشف زَنخ المعدن الردئ، وصدأ لونه، وعفن رائحته على بعد أميالٍ، فلا يغُرّنك من يكثرون التَشدّقَ بالقيم والمبادئ والأخلاق، فعندما تأزفُ الآزفة تجدهم أولَ من يلّفظُها ويتنكّرُ لها، كأنهم حديثُ عهدٍ بها.

دوي المدافع يكادُ يصمُ الآذان، وأزيز الطائراتِ يروعُ القلوب، ومشاهد القتلِ والدمار شريط يتجددُ أمام أعيننا كل يوم، جميعنا يفكر بالخلاص، ولا خلاص مما نحن فيه إلا برحمة ربّك، إما بالهربِ من جَهنّم إلى بلدٍ يعطيك الأمان ...

مقيت أن تفقد الأمان في وطنك وأن تتجرعُ الخوفَ والرعب كل يوم لأنك تقْطُنه، الجميعُ يعتنقُ فكرةَ الهربِ، علّها تثمرُ بتصورٍ واحدٍ، والعادة تقتضي الذهاب إلى تركيا أولاً، ومن ثَمَ تدبير أى وسيلة تهريبٍ إلى أوروبا، ولكن ذلك لمْ يكنْ متاحاً الإ لمن يملكون المال، حتى في الحياة والموت ..

تُثَمنُ الأرواحَ بالمالِ والقدرة، أصبحنا بضاعةً مزجاة؛

من يدفع يُعتقُ، ومن لا يدفع ترّكَلَه وطأةُ العوزِ، ليكون هدفاً متاحاً في مرمى النار.

□□□ □□□□□1.indd 172 1/17/18 8:08 AM

حتى الحياة تُشْتَرى ..

جاهدتُ أنا وباسل في تدبير المبلغ، فبعنا كُلَ ما نملك، حتى شبّكتي لم يبق منها إلا فرده حلق، آثرتُ الاحتفاظ بها لتكون ذكرى إننى في يوم من الايام كان لي شبكة زواج، وبعد كل ما فعلنا، تَجَمّع معنا مبلغٌ لاً يكفي الإ لتهريبِ شخصٌ واحدٌ، كنتُ فرحه بذلك كثيراً، فهروب باسل سيكون دافعاً له ليأتي ويأخذنا

وإن كان الفراقُ صعباً

ولكن العيشَ دون أملٍ أصعبُ.

واشتد النقاشُ والجدلُ فكل منا يرى الأملَ في الآخر، باسل يرى الأمل في حمايته لنا من نوائبِ الحرب، ونحن نرى في هروبه طوقُ نجاةٍ، قد يتأخر لكنه سيأتى يوما ما.

-ما أدراكِ يا حبيبتي أني قد آتي في الوقتِ المناسبِ؟

أما نعيش مع بعض أو ليكنْ ما يكون!

فأما حياة تُجمِّلُها ضحكات الأولاد وابتسامتك، أوغربة يُدفء صقعيها جَمْعتنا

فالحياة أنتم، ولا حياة دونكم،

فإما أن يأتي الحظُ فنهربُ معاً، وأما المكوث هنا وأملنا بالله كبير.

□□□ □□□□□1.indd 173 1/17/18 8:08 AM

استطاعت جارتنا "رانيا" في تلك الأحيان أن تُدبرُ المبلغَ المطلوب، ورغم تَحفّظ باسل نحوها - لأسبابٍ عدة - الإ أنه لمْ يدّخرُ وسعاً في تسهيلِ خروجها من المخيم، رغم أنها كانت من الفئةِ المغضوب عليها أثناءالحصار، وقد فاتحني في موضوعها يوماً قائلا:

-"لما بفكر في موضوع رانيا بحس أنى رغم إني ظلمتها ولسه جواتي إحساس إن وراها سر غميق لكنى بحترمها وبحترم خصوصيتها وشايف إن مساعدتها واجب وياريت فيني أقدملها شي أكثر من هيك "

تذكّرتُ ..ما أن وَطِئتْ قدمها خارج المخيم حتى احْتَضَنتني، وتركتْ بين يداي مفتاح بيتها هامسةً:

-"آمنتك أمانة بيتي بيتكم ... بيكفي بتخاطروا بحياتكم مشاني .. والله ما بقدر لاكفائكم ولو شو ما سويت "

وتكاتفتُ أنا وباسل على مساعدتها؛

بنقلِ أغراضها على دفعاتٍ وفق ما يُتاح لنا، وقد آبى أن أصعد إلى السطح بمفردي، فربط صعودي إلى بيتها بمرافقتي، فالصاعد إلى السطحِ يصبحُ غنيمةٌ باردة للقناصةِ والبراميل المتفجرة، فمجرد رؤية روحٌ تتحرك تُحفّزُ أجهزة الانذار والأشعةالحمراء في مناظير القنّاصة، لتجعلك صيدٌ مكشوف، لا ينْقُصه سوى رصاصةٌ أو قنبلة لتقضي ما كُتِبَ لها.

□□□ □□□□□1.indd 174 1/17/18 8:08 AM

هل جرّبت أن تعيشُ يوماً وورحك على كفّ عفريت؟!

هل جرّبت أن تحيا وأنت على يقينٍ بأن اللحظةَ القادمة مسلوبةٌ منك، وأن تتجهّزُلها وتكون على أهبةِ الاستعدادِ لتحملُ عمرك على كفِك، أعتقد أن الكثيرَ عاش هذه الحالة من الفدائيين والمجاهدين، وكذلك أهلنا في فلسطين ....

لذلك جعلّنا من كلِ لحظةٍ تمر "حياة"

غزلنا في كلِ ثانيةٍ تمرُ علينا؛ ضفائِر مودةٍ مغزولةٍ بلهجِ ألسنتنا بالحمدِ والشكر، لتكون الأنفاسُ التي تتردّدُ في صدورنا

كنا نعيشُ في بيتٍ مكون من غرفتين، اجتمع الأولاد ثلاثتهم في غرفةٍ وأنا وباسل في غرفة أخرى مع صالةٍ صغيرة ضيقة، حتى إذا جاء عرضُ رانيا، فتح لنا باباً من سعةٍ، فقد كان بيت رانيا مكوّن من غرفتين صغيرتين ومطبخ أصغر و فسحه عُرّشت على جوانبها أغصانُ الياسمين، سقفتْ سماءها بعناقيدِ العنبِ الشهية .

وكنتُ أصعد بالعادة لألمُلمُ حاجيات رانيا فينطرني باسل على السطح كأنه ملاكي الحارس متدثراً بسيجارةٍ يبثُ فيها همومه وأفكاره، رافضاً أن يدخلَ معي المنزل، متعللاً بأن لكلِ بيتٍ حرمةٍ، ولا يجوزُ هتكها بحجة توضيب البيت حتى وإن رَحَلَ أصحابه.

وحدث أن ناديته مرةً ليعاونني فقد كانت الصحونُ على رفٍ عالي، وحال طولي بينها، فاستجاب لندائي وأحضر لي الصحون الإ أنه

□□□ □□□□□1.indd 175 1/17/18 8:08 AM

لَمَح علبةً من القهوةِ، فالتفت إليَّ وقال:

-"هلّئ مو مسامحتك رفيقتك بكل موجودات المطبخ ومحلّفتك تاخدي المونه[1] ؟؟ ساويلنا قهوة لنشرب وندعيلها"

رفضتُ طلبه في بداية الأمر، فلازالت أحوالنا أفضل من غيرنا بكثير، ولمْ يصلُ بنا الحال لأن نأخذُ المونةَ من جِيرَاننا، صحيح انْقطعنا عن شرب القهوةِ من فترةٍ طويلةٍ، لكن الحرب أحالت تلك العادة إلى لونٍ من ألوان التّرفِ، فلا داعي لأن نأخذَ ما ليس لنا بحق بدعوى الضيافة ..

ثم حدّثتُ نفسي:

-"هي لو هون رح تضيفنا ..خلينا نضيف حالنا وبخبرها ..وارسلتُ لها رسالةً على الجوال كتبتُ فيها .. انا وباسل رح نضّيّف قهوة ببيتك ..سامحينا"

رغم إن شبكةَ الإتصالات تهلُ علينا كل حينٍ ومين، كإطلالة الشمسِ في القطب الشمالي .. تغيب تغيب ولا تظهر إلا للحظات ثم تأفلُ خجلة، لكن كتبتُ لها ..ابتغاء تحرّي الحلال، فليس من المقبول أن نبّطلُ عملنا بفنجان قهوة نسرقه غفلة والأعمال بالنيات.

واشْترطتُ على باسل أن يقومَ هو بعملِ القهوة حتى أتفرغُ لتجميع

١-المخزون من الطعام.

□□□ □□□□□1.indd 176 1/17/18 8:08 AM

الأغراض وأجهزها في كراتين بُغية نقلها وتسليمها لها، وكان قرار الموافقةِ على فنجان القهوة بالنسبة لباسل كهديةٍ طال ترقب روعتها، فتهلل وجهه وانبسط وأخذ يدندنُ:

مكتوب على جبينك

بطل يا ساكن الزنازين

مهما جرى ومهما حصل

كله فدا فلسطين

بعرف أهانوا وعزبوك

باعوا الكرامة وأرهبوك

تيابك بدمك خضبوا

ما في شرف أو دين.

ابتسمتُ وحادثته ..

- "مفروض هيك غِنية رومانسية عم تغازلني فيها !"

- "إيه طبعاً عم غازلك.."

- "وين الغزل مع الزنازين والتعذيب والإهانة .. ولك هي كلمات تقولها لزوجتك حبيبتك!"

□□□ □□□□□1.indd 177 1/17/18 8:08 AM

-"ولك في أحلى من هيك كلمات .. مهما جرى ومهما حصل كله فدا فلسطين

بتعرفي حبيبتى .. إنتِ فلسطين في عيوني .. إنت العز والكرامة

إنت ياللي باقيالي في هي الدني .."

-"ووولي ما فيني على هالحكي .. يلا مشان ما نتأخر ونضبضب أغراض رانيا، وإنت ما رح تتضايفنا بقهوة .. من إيديك الحلوة ؟"

كانت السعادة تهيمُ بي عندما أرى الفرحةَ تراود باسل فيستجيب لها، كنتُ في كثير من الأحيان أشعرُ بأني أمه، أشفقُ عليه من كثرةِ الأهوال والمصائب التى مرت عليه

كان الخذّلان رفيقاً له في مسيرة حياته من أمه وإخوته وأقاربه، رغم إنّه نَذَرَ حياته كلها لهم .. لذلك كنت فرِحةً بذلك الفنجان الذي سطّر ابتسامةً جذلةً على مُحيّاه، فكأننا اشتركنا مع درويشٍ[1] في عشقه للقهوة بقوله:

أُريدُ رائحةَ القهوةِ..

أريدُ خمسَ دقائق ..

أُريدُ هدنةً لمدةِ خمس دقائق

١-محمود رررويش أحد الشعراء الفلسطينين الذي ارتبط شعره بالثورة والوطن.

□□□ □□□□□1.indd 178 1/17/18 8:08 AM

من أجلِ القهوة.

لمْ يعدْ لي مطلبٌ شخصي

غير إعداد فنجان القهوة.

بهذا الهوس حدّدتُ مهمتي وهدفي.

توثبتْ حواسي كلُّها في نداءٍ واحدٍ

واشرأبّت عطشى نحو غايةٍ واحدة

القهوة.

المطبخُ صغير، تتوسد الخزائنُ الحائط الخلفي من أعلى وأسفل، تتخذُ المغسلةُ من الحائط الآخر مخدعاً، يكمّلُها خزينةٌ تسترُ عورةِ مواسير الصرفِ، ولا يتسعُ الممرُ إلا لشخصٍ واحدٍ ، فما أن دخلَ باسل حتى أخذ يتغّزلُ فيني، في كل حركة يقطعها ما بين البوتجاز والأرفف، وأنا ارْدعه تارةً، واستجيبُ خجلى تارة أخرى،ثم أسْتقرَّ على البوتجاز ويداه تزنان القهوة في الكنكة قائلا:

-"المطبخ روعة بالصيف وبالشتا بدفي ..

وبعدين معك يا مرتى المصونة حد يلبس كل هاللبس ما تركتي شي بالخزانة!"

□□□ □□□□□1.indd 179 1/17/18 8:08 AM

-"ووولي مو أنت اللى دايماً بتحكي لازم ننام ونقوم بكامل حشمتنا .. لأنو الموت قريب كتير وبدنا نموت مستورين ..."

-"إيه والله عندك حق مو معقول اللي عشنا نخبيه يجي الموت ويفضحه".

-"إيه خلص ماتحكي بقا وتقولي شو هالأواعي وهالحكي"

وضَحكتْ والخجلُ يزهَرُ خدودي واستكملتُ عملي، لم تمرّ لحظات حتى اعترضني بوضع ذراعه على الحائطِ مستنداً عليه مانعني من الحركةِ ناظراً إلى عيوني في نظرةٍ أذابتني خجلاً.

-الله بحبني وعلمان بحالي حتى جمعني معك بهيك مكان؛

بالبيت ما عدنا ناخد راحتنا، لم يعدْ مكان للهروب فحشرني بزاوية المطبخ، وباسني ...

وفارت القهوة.

ومع صوت القهوة، أزعجني تصور برودة المياه تهتكُ ستر الدفء في يداي في هذا الجو البارد والصقيع، ونحن نقوضُ البرد باكتنازِ ما نملك من الملابس على أجسادنا، فكيف بنقض ذلك كله لغسل أثار القهوةِ على البوتوجاز، فأزحتُ يديه جانباً بحدةٍ وأغلظتُ عليه القول وتركته متجهمةً مين رح ينضف هالقهوة في هالبرد ؟

-"وبعدين .. معك ..

□□□ □□□□□1.indd 180 1/17/18 8:08 AM

نزعتي منا اللحظة الحلوة، كل هالقصة مشان تنضيف البوتاجاز، إذا بدك بنضف الشقة كلها، وبعدين معك فكينا هالبوز -الله يستر عليك-".

هممهمتُ بالشكوى فقال ..

-"شو عم تحكي خبريني ؟ ما فهمت شي من هالمممم ياللي عم تقوليه .. شو بطلت تحكي!؟"

ضحكت... فضحك

-"قبل ما نحكي بتنضف البوتجاز .. منيح"

أنبرى ينظف البوتجاز بهمة وهو يغني:

شدوا الهمة الهمة قوية

مركب يندهَ البحرية

يا بحرية هيلا هيلا

هيلا هيلا

شدوا الهمة الهمة قوية

جرح بيندهَ للحرية

يا بحرية هيلا هيلا

□□□ □□□□□1.indd 181 1/17/18 8:08 AM

هيلا هيلا

طلع الغربي الغربي بيصفر

تحت المينا الجوع بيحفر

يا بحرية هيلا هيلا

هيلا هيلا

طلع البحر البحر بيبكي

دمع بيشكي القلب بيحكي

يا بحرية هيلا هيلا

هيلا هيلا

ووجدتُ نفسي أصاحبه الغناء تلقائياً، فكأن مارسيل خليفة[1] يرافقنا بعزفه وصوت الحماسي، تقدم باسل بصنية القهوة إلى السطح بعد أن ترك البوتجاز لامع وفي عينيه لمعةُ انتصار الفاتحين، وحرصتُ أن أراضيه بقطفِ عرق من الياسمين ممتنةً له على فعله

وما أن جلسنا مع أول نظرة ... تصالحنا.

منظر الياسمين يُعانقُ السحاب، يخالط كرم العنبِ الأحمر

١-مؤلف موسيقي ومغني لبناني من أهم الفنانين العرب المهتمين بقضية فلسطين.

□□□ □□□□□1.indd 182 1/17/18 8:08 AM

فيتكاملُ مع لونِ السماء الصافية، كأننا في لوحةٍ تصويرية أبدعها الخالق، أخذ باسل يتشممُ عرق الياسمين والتفت إلي:

-"بتتذكري ...

ثم غرقنا في نوبة من الضحك "

لا والله جد عم أحكي تتذكّري عندما كنتُ أشتاقُ إليكِ، وكان العملُ يرافقنا أيام وأيام، وأنا اراكي كل يومٍ أمامي في المشّغلِ ولا مساحة لنا لنلتقي.

-قاطعته مبتسمةً .. لكنكِ كنتُ تتحايل على كل ذلك لتلقاني.

-ضيّقتْ الحربُ علينا كل متسعٍ، فلم يبقى لنا إلا لحظات نقْتنصُها من الزمن اقتناصاً.

-إيه .. بس كنت مجنون وبعدك مجنون ما تغيرت

ابتسمت فاختال زهواً

-إيه بعدني مجنووووووووون فيك

فضحكت .. فضحك

كانت الضحكات كزغردة الفرحِ التى تَعتقُ نفوسنا من ربقة الهمِ وأنين الحرب ووجع الحصار، لكنها مهما طالت طويلة، مهما كانت صادحةً فنهايتها مبتورة.

□□□ □□□□□1.indd 183 1/17/18 8:08 AM

وكأنما انتشى باسل بهذه الذكريات ..

-لابد من الإحتفال الآن؟

- وبماذا نحتفل ؟

-نحتفلُ بإننا مع بعض

قام باسل بتشغيل المسجِّل على البطاريات الجافة، التي كان يبذلُ جهده لتأمينها متل ما يأمن الخبز

فعندما تأتي الكهرباء بالصدفة، تكون بالنسبة لنا احتفالية كبيرة ليشغل باسل جهاز DVD ليرى بالست ميس شلش شخصياً.

وبرغمِ علو صوت ميس لكنه لمْ يغطي على صوتِ الرصاص والدوشكا ولا القذائف.

وإن خفت صوتهم في قلوبنا لكن صوت القذائف ككل مرة إنتزع مساحة الفرحة التي اقتنصناها، فهب باسل قائلاً:

-"فوتي ضبي الحرامات اللي بدها ياهن لأنزل اطمن على الاولاد ونزلهن لعند جارنا ابو نضال التونسي أأمن.."

نزل باسل مهرولاً وبقيت أنا على السطح أصبحنا شبه معزولين عن بعضنا البعض والخوف بحضوره ينتهي

لكن مجرد غيابه يعني كل الخوفِ.

□□□ □□□□□1.indd 184 1/17/18 8:08 AM

تشبثتُ بالجدار وأنا أعُدُ الثواني مستدعيةً الشهادة كل لحظةٍ، كمن يذكّرُ نفسه بها قبل أن يلقى حتفه،

هدأتْ أصوات القذائفِ والصواريخ، تلفّتُ حولي فإذا باسل يفتحُ باب السطح وينادي هامساً

- غنوتي .. حبيبتي ، زوجتى المصون

كان يريدُ أن يُلطّف تلك التجربة التي مرّت بي،

فصرختُ من وراء الجدار ..

-"ما تحاكيني ..

ما بدي إياك ..

أتاخرت علي كنت بموت في جلدي من الخوف .."

صرخ بي لا تتحركي ..

لمْ أستجبْ خرجتُ..

وما أن وضعتُ قدمي خارج الغرفة حتى سمعنا صوت صاروخ ينفجر اعقبه صوت تطاير الشظايا تملؤ المكان

خفت واختبئت فيه

احْتضَنني باسل بقوةٍ وقتها طلبت من اللّه الموتَ في حضنه.

□□□ □□□□□1.indd 185 1/17/18 8:08 AM

فجأه انتبهت لأمر هام،

ابتعدت عنه:

- "يبعتلي حمى قديشني أنانيه .."

- "ليش ؟؟"

- "شلون بتحامى فيك وبخبي حالي بدل ما خبيك !"

- "يبعتلك مية حمى مو لأنك أنانية .. لأنك هبلة

ونزعتي اللحظة الرومانسية، طبيعي تتحامي فيني ولا بتحبي جيب ابو نضال تتحامي فيه اعرض واضخم ..

يا حبيبتي.. أنا من أحملُ شرفَ الرجولة لذا أذا لمّ اقمّ بحمايتك وحماية أولادنا فمن سيكون لهم، على الأقل أنا الآن بوعيي، قد تأتي لحظة وأصابُ بشظيةٍ أو تحدثُ لي عاهه، وقتها لا يكونُ بوسعي حماية نفسي قبل حمايتكن !"

خفضتُ عيوني وقد استسلمتُ للاستكانةِ بين ذراعيه.

في ثقافةِ الحروب .. الكلُ واحد والواحدُ كل،

كلٌ يجودُ بما يقدرُ عليه، إذا قدر؟!!

جيلنا من الفلسطينيون جيلُ التربيةِ العسكرية، تعلّمنا حمل السلاح، فكه وتركيبه إلى جانب الاسعافات الأولية بالمدارس، كنا

□□□ □□□□□1.indd 186 1/17/18 8:08 AM

نحرصُ على التميز بأي جانبٍ عسكري كان أو ثقافي أو تعليمي، كان التميزُ هو طوقُ النجاة من نظرةٍ دونيةٍ يطلقُها البعضُ دون رحمة أو رأفة

كأننا من كتبنا على أنفسنا أن نعيش مشرّدين، كأننا من إخترنا مصيرنا، أن نعيش الشتات و وطننا يُستباحُ، والجميع يشاهدُ ويكتفي بالشجبِ والإدانة والامتعاضِ.

كانت فلسطين بالنسبة لباسل هي الروح بالنسبةِ للجسد، كان يحبني لأني ميسا مرة، ولإني فلسطينية مائة مرة، يحبُ لهفتي على الناس وجرأتي في الحق، صوتي الناقض للظلمِ، ومع أنه كثيراً ما كان يردعني أمام الناس، وكثيراً ما صرّح بخشيته عليَّ من حشريتي[١]، إلا إنني كنتُ أعلم إنه مغرم بنشميتى ..[٢]

وكثيراً ما كان يعلقُ، يغني لي..

والله نشمية .. فلسطينية

اخت رجال .. بنت رجال ..

نظرات النصر بعيني

فلسطينية

انا النشمية

١-فضولي.

٢-رجولة.

□□□ □□□□□1.indd 187 1/17/18 8:08 AM

فلسطينية

ولساني أحلى كوفية.

في هذا اليوم غافلنا الغروب وجاء سريعاً، في الشتاء تكون الشّمسُ خجولةً تختبئُ سريعاً، ولكن مع الحرائقِ التي انْطَلقتْ حولنا مع وهجِ القذائفِ لمْ نعدْ نشعرُ بغيابِ الشمس، وعلى قدرِ ما الحربُ بشعة وقاسية، بقدرِ ما نجدُ في أنْفُسنا مكاناً للرومانسية والحبِ.

أصرّ باسل على شربِ القهوة بعد كل ما حدث، ودخلتُ للمطبخ ثانية لاحضر الكنكة وبينما نشربُ القهوة دار الحديثَ عنه وعني، عن مستقبلٍ غير واضحٍ بمعالمِ مبهمه،

سئلته عن مستقبلِ الأولاد فكان جوابه :

-"لا تفكري لأنو تفكيرك مالو قيمة قدام القدر والنصيب

عيشي ساعتك وبس ،واسعي بترابيتك واهتمامك لتعلميهن، وهنن يتولوا مستقبل حالهن.

كنا نتحدثُ وأصوات الرصاص والقذائف على أشُدّها، وتتهاف عليك أصوات القنابل والانفجارات كأنها موسيقى مرعبة، لمْ يكنْ بمقدورنا أن نساعدُ أو نستطلعُ، فالنزول إلى الشارع بوقت كهذا موتٌ محتمٌ،

وحتى جِلّستنا على السطح خطرٌ بالغٌ، لكننا كنا وصلنا لمرحلةٍ من اليأسِ جعلتنا بأننا بقدرِ ما عشنا مع الموتِ .. ترافقنا

□□□ □□□□□1.indd 188 1/17/18 8:08 AM

وأصبح بيننا عشرةٌ وخبز ودمٌ،

وطالما الموت لا يستأذنُ فما الذى نحْتاطُ له أو نؤجل حياتنا من أجلِه!

وقف باسل على طرفِ السطح ليستكشفُ ماذا يدور في الأسفلِ، باغتْه واقتربتُ منه بشغف الفضولِ والاستشكافِ.

-"فقال مازحا .. هلئ من وزنك بينهار الحيط خلينا مستورين ..بعدين شو بدك تشوفي لبعيد ..شوفي جوزك اقربلك."

تقمصت دور الغضبى، فتركتُ السطح و أخذ يحومُ حولي طالباً الصفح .

إنتهزتُ الفرصة وسألته ..

-"من تحب أكثر أنا ولا فلسطين ؟"

رغم أنك لم تراها يوماً ولم تذهبْ إلى هناك، ويقال عنك.. ابن الشامية لأنك تربيت ونشأت في الشام .

-"فلسطين هي الحسنة الوحيدة بحياة العرب كلن ..شعبها شجاع وصامد وإذا كان هناك عز بالعالم العربي .. هو اعتزازي بفلسطين ..أشعر بكرامتي ورجولتي عندما يقولون.. فلسطيني.. هيك علمي أولادك .. "

-"ضحكتُ .. وين أنا من فلسطين ؟؟؟"

□□□ □□□□□1.indd 189 1/17/18 8:08 AM

ضحك قائلا اقتربي لأخبرك ..

قبل أن نكمل الضحكة طلع طيران استطلاع ،كانت الهيلوكوبتر تحلق منخفضةً بالقدر اللي نشوفها فيه ..وما فتئت ترمى بقنابل ضوئية.

كانت المرة الاولى التي نرى فيها هذا المشهد، شعرنا بأننا في عرضٍ للألعابِ النارية،

أصبحنا نشاهدُ ونحن مشدوهين لهذه الأضواء الجميلة التي تعيدُ تشكيل السماء من جديد

إلتفت إليه ..

-"يا ليت الأولاد معنا ليشاهدوا المنظر!"

-"الحمد لله ماهن معنا لأنو بعد شوي رح يتغير المنظر ومايعود مناسب يشوفوه ..

غمزني وقلي بصوت واطي ازدت جمالا."

-عازك وعوازك ومية رقعة بقمبازك[1] أنا من عمري حلوة بس انت لازمك نضارة،

-"عنجد وشك ضاوي، شو حاطة بودرة؟"

-"هاد تأثير القنابل الضوئية انعكس على وشي"

١-مثل شعبي شامي يفيد الاستنكار.

□□□ □□□□□1.indd 190 1/17/18 8:08 AM

-"خليني اشوفه .. لاتاكد"

وفجأة لَمعتْ السماء من جديد بتلك القنابل الضوئية فتوقفنا عن الحديثِ، والتفتنا إلى الأعلى، وأضاءتْ الدنيا، اقتربت من باسل، فاحتضنني، وبرقت عيوننا بنظرةٍ إلى الأعلى

كنا نَتلمّسُ الفرحَ والسكينة كالمريضِ الذي أنْهَكته الآلامُ والاوجاع وروحه مُعلّقة بتمثّلِ الصحةِ والعافية

اخْتزلنا كل مشاعر الاضطرابِ والخوفِ والوجعِ في ضمةٍ تبقينا إلى جوار بعض، في لحظاتٍ أعادت لنا كيف كانت سوريا أرضٌ يجتمعُ عليها الغريبُ والقريب، يجمعهم الحبُ والمواطنة

وفجأة لمعتْ السماءُ أكثر وأصبحت أكبر ألقاً وأجملَ، وباتت الاضواءُ تقْصُدنا، تحتفلُ بحبنا، بصمودنا، بإصرارنا على الحياةِ رغم كل ما يحيط بنا من الردى.

فضمني باسل إليه أكثر، وشَخصتْ عيوننا مع السماءِ، واختفت اصواتنا مع دوي الاحتفالِ والالعاب الناريةِ، وظلّتْ تقتربُ منا أكثر، وكُلما أقتربتْ كلما احتضننا بعضنا أكثر.

□□□ □□□□□1.indd 191 1/17/18 8:08 AM

□□□ □□□□□1.indd 192 1/17/18 8:08 AM

كنتُ بين مصدقٍ ومكذب، ولا حيلة لي إلا أن أُصدْقَ وأدعو اللّه أن تكون كذبةً، ونافحتْ إمارات الحملِ بعدم الرضوخِ، فضَعْضَعتْ المنافحةُ عزيمتي، وزَهَق الصبرُ بالخبرِ، وهتك القلقُ الانتظارَ, فتبدى الأملُ في الاجهاضِ كسحابةٍ مزجاةٍ في أرضٍ أقحلها قلةُ الفرصِ

□□□ □□□□□1.indd 193 1/17/18 8:08 AM

فوجئتْ بحملِها، زَعِمَ الأطباءُ أن الحملَ سيكون وبالٌ عليها، فرحِمها لا يحتملُ حملاً رابعاً، فتلك مجازفةٌ خطيرةٌ قد تؤدي بها إلى التهلكةِ، ولكن بعض الأطباءِ يجْتهدُ، فيسْرفُ عليك النصائح والتوجيهات وكأنه يحملُ صك الحياةِ و الموتِ

فالروحُ كلمة اللّه وسرها، فلا قدرة لمخلوقٍ على التنبأ بالموتِ أو بيانه إلا اللّه -سبحانه-.

اتكأتْ زينب بكوعها على مسند الكنبةِ وقد فتحتْ حقيبتها لتُخرِجَ هاتفها المحمول وكأنما كانت كلماتها الاخيرة نهايةُ النقاشِ في حوارها مع إختها.

-يا زينب: إن كلَ شئٍ بقدرِ اللّه وأمره، ولكن اللّه سبحانه وتعالى قال﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] وقد كتب اللّهُ لكِ عمراً جديداً في ولادة أدهم، فلابد أن تعي ذلك وإن تُدركي إن حُسنَ التصرفِ يأتي بالمعرفة لا بالعنادِ والصلفِ

وإن المحكَ هو حياتكِ هذه المرة، وإحمدي اللّه أنْ مَنَّ عليكِ بثلاثة من الصبيان والبنات، فقد حقق اللّه لكِ، غايتكِ وأغدق عليك بنعمة الذرية.

أومأتْ زينب برأسها مُأمنةً على حديثها، فقد كانت تجربةُ ولادة أدهم من التجاربِ الصعبةِ التي عانت منها الكثير، ولولا ستر اللّهِ وفضله لابْتدر حياته باليتمِ،

١-سورة (البقرة :١٩٥)

□□□ □□□□□1.indd 194 1/17/18 8:08 AM

ولكن حدث مالمْ يكنْ في البالِ ولا الخاطر، فكانت عودةُ زوجها المفاجئةُ من السفرِ، كسراً لكلِ انماطِ الاستعداد والترتيبِ.

-تأخّرت الدورةُ هذه المرة يا هيام !

-لا تحملي الامرَ أكثر مما يُطيقُ لإبد إنه خللٌ بالهرمونات، فكثير ما تحدث.

-نعم يمكن أكونُ قلقةٌ زيادة عن اللزومِ.

ومرّت الأيامُ، والدورة في حلٍ من موْعِدُها فقد تجاوزت ميقاتها الإيام العشر، فجمعت زينب ما تبقى من شجاعتها لتعاود الطبيبَ، وخشيت من ثورة زوجها، أن يُعنّفُها على ضربها بكلامه عرض الحائط، فتَخّيرتْ طبيباً جديداً، فهالها إمارات الفرحةِ وهو يزفُ إليها خبرَ حَمْلِها في باقةٍ من الورودِ والبالونات.

-مبروك .. أنتِ حامل.

كنتُ بين مصدقٍ ومكذب، ولا حيلة لي إلا أن أُصدّقُ وأدعو الله أن تكون كذبةً، ونافحتُ إمارات الحملِ بعدم الرضوخِ، فضَعْضَعتْ المنافحةُ عزيمتي، وزَهُق الصبرُ بالخبرِ، وهتك القلقُ الانتظارَ، فتبدى الأملُ في الاجهاضِ كسحابةٍ مزجاةٍ في أرضٍ أقحلها قلةُ الفرصِ، وتأهبتُ لذلك وكلُ الأمالِ معّلقة في عمليةٍ صغيرة أتخلصُ بها من وطأة مستقبلٍ تلبّدت سماءه بغيومٍ سوداء وجوٍ عاصفٍ.

□□□ □□□□□1.indd 195 1/17/18 8:08 AM

وتلفحتُ بالقلقِ، ودلفتُ باب الطبيبِ متدثرةً بكلماتٍ أُسرّها بيني وبين نفسي "اللهم يسّرُ ولا تُعسّرُ رب تمم بالخيرِ" وجاءت النازلةُ التي قوّضت الأملَ في العملية، بأن المخاطرةَ واحدةٌ.

وبدأت الشهورُ تمرُ، وفي طياتِها ابتلاء وراء آخر، وهي مستلقيةٌ على السرير لسانها يلهجُ بالدعاءِ، وحركتها قليلة وعيونها شاخصةٌ نحو مستقبلٍ قد لا تراه،

وابن أو أبنة لا ذهب لهم أن يروا الحياةَ من رحمِ المعاناة والفقدِ.

أصبحتُ كالمشلولةِ التى تستعينَ بالدعاءِ والسلوى في استشرافِ أيامها القادمة، أغرسُ الأملَ في صدري وأحرثه علَّ اللّه أن يبتَ في أمري.

الحركة بركة في الحياة، ولكن في حالات الولادة الخطرةِ، الحركةُ مُهْلِكة، فالجنين لمْ يتثبتُ بعد، والرحمُ في حالةٍ يرثى لها، والجنين مقلوب، كلها عوامل تسبلُ في تأكيد أن السكونَ في الحمل سكينةٌ وفلاحُ، توالت الأيامُ وتعددت زيارة الاطباء.

جاء الشهرُ الثامن مترنحاً مثقلاً بهواجس الخوفِ وخيالات الفقدِ، أطل الشهرُ بنزيفٍ دافئ يتسللُ خارج جسدها، وطَفَقَ الدمُ يتدفقُ كينبوعٍ تَفجّر دون انقطاعٍ

وخارت الحلول ثكلى، وكست الصدمةُ الجميع بثوبِ الجمود، والزوج حائرٌ، والأصدقاء واجمون، عيونها شاخصة وقد اكتسى

□□□ □□□□□1.indd 196 1/17/18 8:08 AM

ثوبها بالدماء كأنه كفن شهيد، وصلنا إلى المستشفى بسرعةٍ، هرول زوجي إلى الاستقبال

-انجدوني .. زوجتي في خطر ..

ردّتْ عليه الموظفة في برودٍ..

-سأُرسلُ في طلب أحد الممرضات لمساعدتك

-إن زوجتي على حافة الخطرِ تتأرجحُ

أُريد طبيباً... بالله عليكِ اسرعي.

وأمام برود الموظفة، أمسكت أول شخصٍ بروب الأطباءِ يمر أمامي كدتُ أن أقتلعُ كتفه وأنا أدفعه للنزول للسيارة ليأمرهم باحضارِ زوجتي، ما إن رأها حتى استنْكرَ حالتها وتَبْدلُ وجهه، وتغير معتذراً

-المستشفى لا تقبلُ هذه الحالات ؟؟!

-أوااااه أى حالات يا من أقسمتَ برعايةِ المرضى

أُضرم الرعبُ في صدري وأنا انتقلُ بها من مستشفى إلى الأخر، والأطباء يمتنعون عن قبولها

وكأن الرحمةَ إُجْتثِت من قلوبهم، يتعاملون مع زوجتي كأنها حالة تجربة، يفحصونها، ينبروا لسؤالها وهم يرون الدماء تتدفقُ معلنةً انصراف الحياةُ منها رويداً رويداً...

□□□ □□□□□1.indd 197 1/17/18 8:08 AM

وهم في حالة استطلاع، وأنا اتشظى بين الخوفِ عليها والمسئوليةِ في أني لمْ أفيها حقها .

أغْرورَقتْ السيارةُ بالدماء وأضْحت الثواني كالساعات، وأنا أتعلقُ بحبالِ الأملِ ويقيني بأن الله لن يكلني إلا لخيرٍ

المستشفيات الصغيرة تُحِيلُ الأمرَإلى الكبيرةِ، والكبيرةُ تَتَخلى، وتارةً ببروقراطيتُها تتجلى، وهي في السيارة تستغيثُ بآهاتٍ تخلعُ القلوب

-اتركني ها هنـا

لا تُرهقُ نفسك أكْثر..

الإذعانُ للابتلاء يقين..

وأنتَ أهلٌ لليقينِ..

لا تجزع عِندَ موتي ..

فقد إقتربت ساعتي ..

وأهلَّ الموتُ يستقبِلني ..

الأولاد أمانةٌ في عنُقك..

وأُشْهدُ الله إنكَ كنت نعم الزوج ونعم الأخ والصديق ..

□□□ □□□□□1.indd 198 1/17/18 8:08 AM

-رويدكِ يا زينب، وفّري عليكِ جهدَ الحديثِ، فالطريق أوشك على الانتهاءِ، وها قد وصلنا إلى المستشفى الكبيرةِ المجهزه بقدرة قادر، ثم بالاستعانة بصديقٍ مسئولٍ

لم يتردّدْ الطبيبُ أن يُعلنَ حالة الاستنفارِ في طاقمه،

تحرك الجميعُ كخليةِ نحلٍ، حمل الاطباءُ زينب على محَفّة العمليات وكأنهم يطيرون من فرطِ السرعة، والطيبُ يصيحُ :

-غرفة العمليات بسرعة ..

يلا مفيش وقت

وأُغلق بابِ العمليات واشتعلت اللمبة الحمراء، كما هاجتْ بي الهواجسُ بين القلقِ والدعاء .

لا أعي ماذا دار بي، ولكني كمن تسلل الخَدرُ إلى أوصالي فتهتْ عن الواقعِ وتاه معها كل شئٍ،

كل الشخوصِ أضْحَوا اشباحاً، ولم أعدْ أرى إلا كشافات غرفة العمليات مُسلّطة على وجهي، وسخونة ولزوجة الدمِ تنْسالُ على أجزاء جسدي، وهمهمات الاطباءِحولي كأنني في ملكوتٍ آخر هائمةً.

-إسْرِعوا ..

نُريدُ أكياسَ دمٍ...

□□□ □□□□□1.indd 199 1/17/18 8:08 AM

حَالتُها خطيرةٌ ..

-دكتورة ... محتاجين ٣ لتر دم فصيلة O سالب ..

بسرعة من فَضْلِك ..

يا آلهي .. رُحْماكَ يا رب ..

رُحْمَاكَ يا رب..

لقد إنْفَجرَ الرحمُ...

الدم أرجوكم بسرعه الدم ...

النزيفُ شديدٌ، والجسمُ في حاجةٍ للدمِ ..

.. ستموت ..

أين جهاز الصدمات الكهربائية؟

إنا للّه وإنا إليه راجعون ..

إنا للّه وإنا إليه راجعون ..

للّه الأمرُ من قبلِ ومن بعدِ...

للّه الأمرُ من قبلِ ومن بعدِ ..

وفجأة تَغير الوقتُ..

□□□ □□□□□1.indd 200 1/17/18 8:08 AM

أضْحَت المشاهدُ مشوهةً

إنْكَشف ضوءٌ ساطعٌ، خطف البصر

وسَمِعت قولَ الطبيبِ

اذكروا الله ....

لقد جاء أجَلُها ....

البقاء لله ..

أأكون متُّ فعلاً!

كيف ذلك وأنا لازلتُ أسْمعهم !

كيف يقولون ذلك وأنا أرى أشْباحهم وأنا مُغْمِضَةٌ عيني، وأشعرُبأنْفاسهم وهم حولي ..

أأكون انتقلت إلى عالمٍ آخرٍ!؟

من أنا ؟

وماذا يَحْدثُ!

ما هذا الضوء الساطع !؟

□□□ □□□□□1.indd 201 1/17/18 8:08 AM

كيف يقولون عني متُ وأنا حاضرة بينهم

أراهم

أسمعهم

أصْرخُ بعلو صوتي فلا يلتفون إليَّ

أُحرّكُ ذراعي فلا يعبئون بي

أنا هنـا ..

أنا زينب ..

تأملت نفسي نظرتُ حولي فارتعدتُ وسرى الخوفُ في فأفجعني، وجدّتَ روحي خرجتَ من جسدي

كأن روحي انْفصلتْ عن جسدي البشري الزائلِ، أصْبحتُ أنْظرُ إلى نفسي من فوق فأجد جسدي مُلّقى على السريرِ والأطباءُ من حولي، أسترجعُ شريط الذكريات، كانوا هنا مُنذُ لحظات ..

في حالة اضطرابٍ وهلعٍ، يلتفتون إلى بعضهم البعضِ..

-أسرع زود شحنة الكهرباء ..قلبها على وشك التوقف ..

أشاهدُ جسدي ينتفضُ مع الصدمات الكهربائيةِ المتتاليةِ، وصفيرُ جهاز القلب ثابتٌ على وتيرةٍ واحده.

-انتهى النبضُ..

□□□ □□□□□1.indd 202 1/17/18 8:08 AM

انتهت الحياة ..

متُ أنا كما يَروْني ..

مجرد جسدٍ خاوي من الحياةِ امامهم ..

لكني هنا ..

أراهم وأسمعهم

أنا هنا في مكانٍ ما..

أحاولُ لفت انتباههم دون جدوى

لا أحد يُنْصتُ إليَّ

وتهاوى صراخي في الصمتِ كأن شئً لمْ يكنْ

وفجأة بدأتُ اشعرُ برعشةٍ تسري فيّ، وضوءٌ ساطعٌ آخر يتْغشاني، ووجدت روحي مُسَجّاة فوق جسدي، واستدركُ بصيصاً من اصواتِ الاطباءِ المضطربةِ حولي، وقتها شعرتُ بإني في ممرٍ اسطواني طويلٍ، طويل جداً ... وفي نهايته يسطعُ ضوءٌ جميلٌ مبهرٌ، يأخذُ الابصارَ

ومنِ الجهةِ الأخرى من الممرِ، أسمعُ همهمات الاطباء والمستشفى وأصوات الاجهزةَ

هناك... هناك شئٌ ما يسْحَبُني لأدْخلُ الممرَ أكثر، والضوءُ

□□□ □□□□□1.indd 203 1/17/18 8:08 AM

يسري في روحي، يتخللُ جسدي...

وهمهمات الاطباءِ تَخْبو ...

وتخبو،

وفجأة شَعُرتُ بشعورٍ مغايرٍ،

هناك من يجذبني إلى الناحيةِ اليسرى ...

إلى المستشفى

يسْحبُني بقوةٍ، تقابله قوةٌ أُخرى من الناحيةِ اليمنى

جسدي يكادُ يتمزقُ بين الشدِ والشد

وآهاتٌ مني تصرخُ أن اتركوني ..

اتركوني

الضياءُ في اليمين يراوغني، أدْركتُ وقتها

أني قد متُ

وأن روحي تنتقلُ إلى عالمٍ آخر

أخذتُ أبكي وأتأملُ حالي، فلارجْعة ولا مساحة الآن للبكاءِ على ما مضى

كل ما فَعلته ... فعلته

□□□ □□□□□1.indd 204 1/17/18 8:08 AM

كل ما جنيته ... جنيته

وكل ما اكْتَسبْته من ذنوبٍ ... اكتسبه

لا مساحة للرجوعِ، فتذكرتُ قولَ اللّه تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]

فأخذتُ أصرخُ أيا .. رب .. ارجعون ..

ارجعون .. ارجعون .. ارجعون ..

أيا رب .. أرجعون ... ارجعون ..

وهمدتْ كل اجزاءِ جسدي

وسكنَ السكونُ روحي

فقد ادركتُ إن ما من مساحةٍ للرجوعِ

ولكن لازال الشدّ يُمَزِّقُني أكثر ما بين اليمينِ واليسارِ

فما ادركتُ نفسي إلا وزوجي يهمهمُ في أُذني..

"الحمد للّه كَتَبَ اللّه لكِ عمراً جديداً"

١-سورة(المؤمنون :٩٩-١٠٠).

□□□ □□□□□1.indd 205 1/17/18 8:08 AM

للتواصل مع الكاتب

www.ussama.net
info@ussama.net
@ussama14

□□□ □□□□□1.indd 206 1/17/18 8:08 AM